حسن محسب

حلم الليل والنهار

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الفصل الأول

طلقات الرصاص لابد أنها فرقعت فى صمت الليل دون أن يدرى بها أحد . . فقريتى تنام . . عادة . . بعد صلاة العشاء . . ولا تشذ عن هذه العادة إلا إذا وقع أمر خطير . . كأن يمسك الخفراء بأحد لصوص المواشى أو سارقى المحاصيل . . أو يقيم العمدة مأدبة عشاء لأحد المسئولين بالمركز بعد اجتماع أو ندوة للتوعية . . أو يحتفل الشيخ على واعظ القرية . . بمولد « الشيخ أبو حلاوة » . . بعد موسم جنى القطن . . أو ما شابه ذلك من الأمور التى تثير الأقاويل بين الناس .

لكن قريتى . . ولوقت طويل ، لم تعرف النوم إلا قرب الفجر . فقد وجد الناس فى مقتل « عطية » حادثاً مثيراً . كما وجدوا فى عودتى إليهم . . نفس الإثارة ! . .

. . شدنى الحادث بعنف . . ليس بحكم عملى كصحفى فى جريدة من الدرجة الثالثة . . فأنا – على الأقل من جانبى – عاقد العزم على تركه نهائياً أو مؤقتاً – ولكن لأن عطية من ناحية . كان أبرز شخصية عرفتها قريتنا والقرى المحيطة بها . . فهو لص محترف . يسرق . . فى عز الظهر ما يريد . . لكنه لم يسرق أبداً من قريتى شيئاً . . لأنها قريته . . وقد جعل من نفسه حامياً للناس وأموالهم . . وبذلك كثر أعداؤه فى القرى المحيطة . . لأنه كان يؤدب كل من يجرؤ منها على إيذاء أحد فى قريتى . . لذلك كانت له مكانته الخاصة عند كل منا .

ومن ناحية أخرى . . شدنى الحادث بعنف . . لأنه وقع فى أرضنا . . وبذلك قدر لأرض العنانى أن تظل حديث أهل القرية لزمن طويل !

كنت قد تعودت - بعد شهر - على العمل مع أبى فى الأرض . وكنت قد اعتدت نظرات التساؤل الموجه لى ولأبى . ولأمى . . ولأخواتى . عن سبب عودتى إلى القرية . . وقد أدرك الجميع أننى فشلت فى عملى فى القاهرة ورجعت خائباً إلى القرية . . فهذا لم يكن بالجديد عليهم . . فكم من شباب القرية هاجروا إلى المدينة بحثاً عن رزق أوسع ، لكنهم كانوا سرعان ما يعودون إلى القرية وكل ما حققوه هو نعومة فى أيديهم وعوجة فى ألسنتهم عند نطق الكلمات . وقليل من الشبان هم الذين نجحوا . . ولم يرجعوا إلى القرية إلا فى زيارات العيد المعتادة ومع كل منهم زوجه وأولاده . . بعض المال . . وثياب جديدة على أجسادهم النحيلة ! . .

ولأن أبى لا يسهر كثيراً فى مقهى أبو المجد . الذى يجتمع به هواة الأحاديث عن الناس وأسرارهم . . فقد تعودنا الأمر بسرعة وسرعان ما نسيناه . . باستثناء أمى . . التى كانت تضطر إلى إرسال إحدى شقيقاتى بطاجنى اللبن كل صباح إلى السوق المجاور للجامع . . لتوفر لنا بعض القروش لكن أختى كانت تعود دائماً دامعة العينين . . فقد كانت ألسنة النسوة والبنات تغمزنى ولابد أنهن يذكرن قصة زواجى من بنت مصر . . إياها ! . . إننى فى رأى الجميع «الولد الطائش» الذى جر على أهله المصائب ! . .

وفى صباح ٥ مارس . . خرجت مع أبى ومعنا المحراث وإحدى شقيقاتى تقود الجاموسة والبقرة . . وتضع على رأسها ربطة بها بعض الأرغفة الطازجة التى خبزتها أمى فجراً مع فطيرتى ذرة لنفطر بها عندما نجوع .

وكنت طوال الطريق أسير بجوار أبى الذى ركب الحمار ووضع المحراث أمامه . .

وأنا مشغول البال بشيء يبدو تافهاً لكنه كان يشدنى . . ربما لأنه الشيء الناعم الوحيد الذى وجدت من حقّى أن أمارسه . . ذلك هو عيد ميلادى . . صحيح أننى كنت كل ليلة وعندما أنام فى فراشى وأتغطى بالحرام الذى صنعه أبى من صوف الغنم ، كنت أعود بذاكرتى المتعبة إلى أيام خلت . . ويبدو أنه مضى عليها دهور طويلة . . لكن برغم ذلك كنت أحس بدفء صديقتى ليلى . . الطالبة بالجامعة ، وأيضاً . . أكاد أشم أنفاس تلك المرأة التى جعلتنى ذات ليلة أوقع على شيكات بثلاثمائة جنيه دفعها أبى من تراب الفدانين . . تراب عمقه متران . . ومساحته فدانان أصبحا بركة ومصرفاً لأرض الجيران . . أشقى مع أبى وإخوتى كل يوم فى إصلاحها وإعدادهما للزراعة من جديد ، منذ عدت إلى القرية : عقب رسالة أبى :

« يصل ويسلم إلى حضرة ولدنا الغالى خالد العنانى .كيف تطلب منى يا ولدى أن أبيع الفدانين والدار وأهاجر أنا وأمك وإخواتك البنات إلى « مصر » هل نسيت الأصول يا ولدى . إذا بعت أرضى أموت . . وواجب عليك أن تفعل أى شىء لمساعدتى فالفدانين بعد أن بعت ترابهما بعمق مترين للمقاول الذى أرسلته الحكومة لردم البركة « أصبحا بين غيطان الجيران مثل البركة ! . . »

أردت أن أقول لأبى إننى السبب فى كل ما حدث له وللأرض ، وأن طيشى واستهتارى ضيعا منى صديقتى « ليلى » لكننى خجلت أن أقول لأبى . . إن اليوم . . هو عيد ميلادى . سينظر إلى بدهشة . . فالناس فى الريف . . أى ريف . . لا يهتمون بذلك . . مع أنهم جميعاً يحتفلون بابتهاج شديد بمولد الطفل . . وبيوم سبوعه سخرت من نفسى : « وماذا فعلت منذ ولدت . . ؟ »

حاولت أن أصرف الأمر كله من رأسى . . قلت لأبى أن الحاج عبد الكريم . .

رجل تاريخي فعلا . . وسأكتب عنه مقالة ممتعة سيرحب بها رئيس التحرير . .

فسألني أبي :

-كيف تكتب عن الحاج عبد الكريم . . وأنت لم تجلس معه غير ليلة واحدة . .

ابتسمت . . كان أبي يقول لى دائماً . . كلما زرته . . إنه يفهم فى الصحافة أكثر مني . .

وعنده كلام كتير يود لو قاله . . وكان يحدثني عن نظام حيازة الأرض . . وتوزيع البذور والسماد من الجمعية التعاونية وغطرسة المشرف الزراعى الذى لا يمر على الأرض ويحرر المحاضر للمزارعين . .

بالأمس حدثني الحاج عبد الكريم عن نشأة القرية . . وعن أصل العائلات المعروفة . . وحكى باستمتاع واضح عن الأيام التي عاشها وهو عسكرى بطربوش فى الجيش . . لكن ذلك لا يكفي . . أبي معه حق . سأكتب عن الرجل فيما بعد . .

قال أبي :

- ألح على « عبد الرازق » لأبيعه الفدانين . رجل مراب أراد أن يأخذ الأرض برخص التراب . . ليكسب من ورائها الكثير .

قلت له :

- إنه حاج . . يعرف ربنا .

ضحك أبي وقال :

- ذمته وسعت كثيراً . فى البلد ناس حجوا وقلبهم أبيض وأولاد حلال . . لكن الحاج عبد الرازق . . لا ينسى أبداً قوله المعروف لأى إنسان : « أنا مستعد

أفاصل فيك عزرائيل ذاته » . تصور يابنى . . الفلوس وما تعمله فى نفوس الناس . .

قلت :

- الطمع يولد الطمع .

هز رأسه بأصابعه الخشنة . . وعدل ناف المحراث أمامه . . إنها أكثر خشونة من أصابعى التى أشعر الآن بثقلها . . إنها تزداد أهمية بالنسبة لى . . كان القلم يسبب بها ورماً . . قلت ذلك لأبى مرة فضحك وسألته :

- لكن . . الأرض فى حاجة إلى مال كثير يا أبى . .

- أى نعم .

وصمت ، فأحسست بجريمتى فى حقه ، وقلت فى سرى : ماكان يجب أن يبيع تراب الأرض ، فأنا لا أستحق هذه التضحية الغالية منه . . قلت :

- تريد ردماً كثيراً . تريد سماداً يقويها . .

قال :

- ربنا يسهل . كله يتدبر .

قلت :

- أتعرف ، كنت دائماً أقول لزملائى فى القاهرة إننى تعلمت من أبى قيمة الصبر وفضيلته . لكننى الآن . . أتعلم منك أيضاً . . قيمة التفاؤل . . والأمل . . لديك ثقة كبيرة فى أن الأرض ستنفع مرة أخرى .

قال وعيناه تحدقان فى قمم الأشجار الكثيفة على شاطئ ترعة أم شوشة :

- الأرض يابنى . . لابد أن نزرعها من جديد . . لابد أن نولدها زرعاً جديداً . . والأرض مطاوعة . . تساعد من يخدمها . .

قلت لنفسى :

- نعم . . لابد أن نولدها زرعاً مرى أخرى . . برغم أن الناس يتندرون الآن بأرضنا . .

أمس كنت ذاهباً لشراء علبة سجائر من دكان البيومى فخرقت أذنى ضحكة ساخرة من امرأة تقول لصاحبة لها بجوار الدكان .

- «عشم إبليس فى الجنة . لو أرض العنانى جابت زرع . تبقى بخاطرها تولد . .»

تألمت . . لأن أرضنا أصبحت رمزاً للجدب والعقم معاً . لكننى ما لبثت أن رأيت فى الأمر جانباً إنسانيًّا . فهذه المرأة - كما عرفت من أمى فيما بعد ! تتألم لأن زوجها تزوج عليها امرأة أخرى هى « بخاطرها » ، وهى بالطبع شامتة فيها لأنها عاقر . . ولن تلد . وهذا يعد كسباً كبيراً لقضية الزوجة الأولى ، لكن ربط الأمر ببوار أرض أبى ينكأ جراحى التى لا تحتمل ! . . عندما وصلنا الأرض . ساعدت أبى فى ربط الماشية إلى المحراث . . ثم أخذت الفأس من أختى هدى ومضيت إلى الجسر أخذت أقلب الأرض بجواره . . فالمحراث لا يتمكن من حرث الأرض بجوار الجسر دائماً لصعوبة ذلك . . حاول أبى أن يحرث جوار الجسر أمس لكن البقرة بركت فى القناة . . وحرنت . . بصقت فى راحتى ورفعت الفأس فوق رأسى وأنزلتها فغاص سلاحها فى الأرض . وارتجت عظامى والتهبت أصابعى ! . .

بعد لحظة . . ارتعدت . . وعرقت . . جف حلقى . . تراقصت الرؤية أمامى . . فقد فوجئت بصرخة مدوية مذعورة أطلقتها أختى هدى وجريت إلى أبى الذى صاح بذعر شديد !

- مصيبة ! . .

فى ثوان طويلة تمالكت نفسى . أسرعت إليها . . لأفاجأ بجثة « عطية » . . ممددة فى ركن أرضنا غير بعيد عن القناة التى تفصلنا عن أرض العمدة . كان غارقاً فى دمائه . . جاحظ العينين .

درت بعينى فى الأرض . فى الأفق البعيد . . إنها فضيحة أخرى . . أخطر هذه المرة . . ماذا يقول الناس عنا ؟ أرض العنانى . أرض العنانى . . وجريمة قتل بها . من قتل عطية . . ومتى . و . . أفقت على صوت أبى ، يطلب منى وهو يرتعش ، أن أسرع إلى نقطة البوليس وإلى دار العمدة وشيخ الخفر . . قال :

- لازم الحكومة تحضر . . قبل أن نقع فى هذه المصيبة التى لم تكن على البال .

* * *

عندما عدت إلى الأرض . . كنت أكثر ارتباكاً . . وأشد خجلاً وألماً . كان الفلاحون جميعاً حول أبى . . كانت القرية كلها قد انقلبت إلى أرضنا . . وآلمنى . . بين كل هذا الألم الشديد . . أن أقدام الناس قد دهست كل ما تعبت مع أبى فى حرثه وعزقه طوال أمس .

كانت أختى « هدى » قد كفت عن الصراخ . . بح صوتها . . انهارت بسنواتها السبع عشرة ، شاحبة مذهولة عند رأس الجسر بجوار المحراث الذى رقدت البهائم بجواره . . تجتر طعامها فى صمت . . بينما الحزن يكسو عيونها الواسعة ! . .

كان أبى يروى للعمدة وللناس من حوله :

- رأيت كوم القش هنا . . قلت لهدى أن تلم القش وتحمله إلى الجسر لأحرث الأرض . . لمت البنت القش . . لكنها . . كمن لدغها ثعبان أو رأت عفريتاً . . صرخت . .

. . وجاء الضابط من نقطة البوليس . . على جواده . . وخلفه بعض رجال

البوليس . . كل منهم يحمل بندقيته . . وفى الركاب كان شيخ الخفر بخيزرانته وجسمه المربع . .

أعاد أبى حكايته . . وأضاف فى حزن شديد :

– هل ضاقت الدنيا أمام الذين قتلوه . . ولم يجدوا غير أرضى أنا . . يارب حكمتك . . » .

وقد ندم أبى فيما بعد . . على هذه الكلمات التى خرجت من فمه عفواً . . وتنفيساً عن أحزانه وغيظه وخوفه . فقد سأله الضابط .

– « تقول : الذين قتلوه . هل تعرفهم ياعنانى ؟ . . »

ارتبك أبى . اهتز قلبى وسقط فى قدمى وأنا أرى وجه أبى يزداد شحوباً وهزالاً . كرر الضابط سؤاله بعنف :

– أتسمعنى ياعنانى . . قلت : الذين قتلوه . من هم . . هه . ؟

نظر أبى إلى الناس من حوله . . كانت عيناه زائغتين خائفتين . بدأ الفلاحون يبتعدون عنه ببطء . . اقترب منه العمدة وشيخ الخفر . . قال العمدة :

– لا تخف يا عنانى . قل من هم . . وحضرة الضابط سيقدر ظروفك .

ثم نهره بصوت آمر زاجر :

– رد على حضرة الضابط . من هم الذين قتلوا عطية فى أرضك . . ؟

زاد خوفى . . تلفت أبى حوله . . يبدو أنه لاحظ ابتعاد الفلاحين عنه . . اقترب منه اثنان من رجال البوليس . . ارتعدت . . نظر إلىّ والدى . . استنجد بى . تقدمت منه . . وقفت بجواره . . ألصقت كتفى بكتفه . يبدو أن ذلك شجعه قليلا . قال :

– من هم ياحضرة الضابط . أنا لا أعرف أحداً .

امتدت يد شيخ الخفر بخيزرانته لتهوى على أبى فصرخت :

- عندك . ما هذا . . ؟

وأمسك أبى ذراعى بأصابعه . . كانت تنتفض . . لكنها منحتنى قدراً من القوة كان كافيا لتوجهى إلى الضابط بسؤال :

- هل أخطأنا بإبلاغ البوليس بوجود جثة عطية فى أرضنا ؟ . . ألم نكن قادرين على حملها إلى أرض أخرى بجوارنا . . لم يكن ذلك يكلفنا شيئاً . . كان يكفى أن أحمله أنا وأبى ونرفعه متراً ونصف متر لنتركه هنا . . فى أرض حضرة العمدة بجوارنا . . ترى فى هذه الحالة هل . . .

فقاطعنى أبى :

- ليتنا فعلنا يا ولدى . .

ويبدو أن ذلك شجع الفلاحين قليلا فقد همهم بعضهم بكلمات مشجعة واقترب بعضهم من أبى :

لكن الضابط سيطر بسرعة مدهشة على الموقف ، وحسمه بكلمات وجهها إلى معاونه : افتح المحضر . وسجل فيه :

ثم أملاه بعض البيانات عن البلاغ الذى تلقاه منى . . وانتقاله بعد ذلك إلى مكان الجثة ثم وصفا دقيقا للوضع الذى كانت عليه الجثة والمكان الذى وجدت فيه . إلخ . . إلخ .

وجعلنى ذلك أطمئن وأبتسم لأبى لأشجعه . . فقد ظننت أن الأمر سينتهى عند هذا الحد . . خصوصاً وأنا أعرف أن عطية «قتال قتلة» ومعنى ذلك أن على ضابط البوليس أن يطلب مكافأة لمن قتله . فقد أراحه من صداع دائم كان يسببه

عطية لكل رجال البوليس بحوادثه المتعددة ومكره الذى جعله بعيداً دائماً عن العدالة . .

لكن الضابط فاجأنا جميعاً بأوامره التى أصدرها لعساكره .

- إثنان منكم يبقيان مع شيخ الخفر بجوار الجثة لحين حضور النيابة . . واثنان يقبضان على العنانى وابنه . . لاستكمال التحقيق فى نقطة البوليس .

وأظلمت الدنيا أمامى . .

خطر لى خاطر عجيب . . كل الكوارث لا تستغرق أكثر من نصف نهار فقط . . شيء غريب حقًّا . . لكننا لم نفقد الأمل بعد . . كان أبى منكمشاً فى يد العسكرى . . لاحظت أن قدماى تهتزان . . تمنيت أن أستند إلى ذراع العسكرى الذى يرافقنى . .

وأمامنا الضابط يمتطى جواده . . وخلفه يسير العمدة والمعاون . . صرخت أختى هدى بصوت به شقاء العالم :

- أبويا . . أخويا ! . .

وجرت خلفنا . . ثم وقفت بين يدى جارنا الطيب عم طه أبو جلهوم . . كمن ماتت ! . .

الفصل الثانى

سقطت داخل نفسى لحظات . . تملكنى الوجوم . . خيل إلىّ أن الدنيا من حولنا عبث فى عبث . . وأن ثمة طفلا مجهولا يلهو بمصير أسرتى . . فما حدث كان أمراً غريباً . . أصبحنا حديث القرية . . أرض العنانى التى باع ترابها للمقاول ليردم به البركة . . وابن العنانى الذى فشل فى القاهرة وجعل والده محل سخرية الناس جميعاً . . ولا أحد يصدق كيف رضى العنانى بأن يبيع تراب أرضه ويفقدها خصوبتها ويجعلها لا تلد إلا زرعاً هشًّا لا ثمر به . وعطية . . رجل الليل والجريمة الذى قتل فى أرض العنانى . . بعد أن دوخ رجال الليل فى البركله . . وأعجز البوليس لوقت طويل عن إثبات جرائمه .

ما هذا ؟ ! . .

عجز عقلى عن إدراك معنى واحد معقول لكل ما حدث . . كنت مرتبكاً . . أشعر بالعار الذى دفنته بداخلى فترة طويلة . . يقب . . يطفو على قلبى وعقلى وأحنيت رأسى . . حتى لا يرى أبى دموعى التى انفجرت رغماً عنى ! . .

فجأة . . دبت الحياة فى أعضائى التى خيل إلى أنها شلت . . كانت أمى تصرخ خارج نقطة البوليس . . شق صراخها جدار الصمت الذى أحاطنى أنا وأبى . . أثار الحركة فى الطرقات ذات البلاط الرمادى فى نقطة البوليس . . هرولت أقدام وقع أحذيتها يفرقع فى أذنى بعنف . . وسمعت أحد العساكر يزجر أمى ومن معها . .

كان صوته محتداً وهو يبعدها . . لكن محاولته فشلت على ما يبدو . . فقد دار صراخ أمى مع قدميها حول أسوار نقطة البوليس . . ونبح كلب على الطريق الزراعى القريب . . وزعقت بومة تحط - فيما يبدو - على صهريج المياه الجديد غير بعيد من نقطة البوليس . .

ارتجف أبى . . وتنهد . . ثم رفع رأسه وشجعه ظلام غرفة الحجز على أن يكلمنى . . قال فى أسى شديد :

- ماذا تقول كتبك الكثيرة التى قرأتها ياخالد . عن هذه الفضائح ؟ ! لفنى الصمت . تذكرت الكتب التى كومها أبى فى قفص جريد كبير ووضعها فى ركن بحجرة علف البهائم . . كان يقول لى « هذه الكتب ستلحس عينيك . . وتضعف بصرك ياولدى »

. . وكنت أضحك لأطمئنه وأقول مداعباً :

- إنها على أى حال لن تلحس عقلى يا أبى .

سألنى مرة بعد أن رأى فرحتى الغامرة عندما نشرت مجلة « الأدب » قصتى الأولى « ثلاث درجات » :

- ما فائدة كل هذا ياخالد ؟ . .

قلت له يومها بحماس شديد :

- أكثر من فائدة . . إن مهمة الأدباء والمفكرين يا أبى هى أن يعيدوا صياغة الحياة من جديد . . أن يدعموا القيم الجديدة للمجتمع وتعثرت . . عندما نسيت بقية الكلمات التى كنت قد قرأتها فى أحد الكتب . .

لكنه يومها . . هز رأسه فى ألم واضح وقال :

- هل يعود عليك كل هذا الكلام بأى مبلغ من النقود . . هذا ما أريد أن

أعرفه ياخالد ؟

. . يومها غضبت من أبى . كيف يفكر هكذا . إن الحياة ليست هى المال وحده . . لكننى بعدها بلحظات خجلت من نفسى عندما سمعته يرسل بأختى هدى إلى جارتنا حبيبة أم الباز – التى تعمل مع زوجها فى تبييض النحاس - لتطلب منها ريالا سلفاً ليكمل به ثمن كيلة ذرة بعد أن خلت الدار من الخبز ! . .

قال أبى :

– أتسمع أمك تصرخ ياخالد . . لم أعد أسمعها . . أذنى انسدت . . وتحول خجلى إلى ألم . . ثم إلى رغبة جادة فى تدمير أى شىء حتى لوكانت نفسى . .

ازداد خجلى من جبنى وخوفى . كان يجب أن أضرب الشاويش الذى صفع أبى على أذنه لكننى لحظتها اكتفيت بأن قلت :

– تحمل يا أبى تحمل . . شدة وتزول ! . .

وتركت الشاويش يخرج من غرفة الحجز . دون أن أثأر لأبى . ماذا تقول كتبى عن ذلك يا أبى . لا أعرف . لم أعد أومن بشىء الآن . لقد ضيعت سنوات عشراً من عمرى فى أوهام كاذبة . . معذرة يا أبى .

– أمى لم تعد تصرخ . . يبدو أنها عادت إلى الدار .

ارتفع نقيق الضفادع فى المسقى المجاور لنقطة البوليس . . وازداد طنين البعوض . . لدغتنى إحداها . . آلمنى ذراعى . . هرشته . . وبحثت فى جيب بنطلونى الكاكى القديم عن سجائر . . لم أجد . .

– ولا أيام التفتيش . . أتذكر يا خالد . . ؟كان ناظر التفتيش يحبس المزارعين فى الدوار . . مع البهائم . . وعطية . . هه . . الله يرحمه ويسامحه على ما عمله بنا . . كان يرفض أن يضرب المزارعين . أنا أعرف يا ولدى أن الناظر عرض عليه

مرة مائة جنيه . . عندما كانت المائة جنيه ورقة كبيرة بعرض وش الصديرى . . لكنه ترك العمل كغفير فى التفتيش . . حتى لا يضرب أهله وناسه ! . .

صمت أبى لحظة . . ثم أضاف :

-كان رجلاً . . ياخالد .

- لكنه قتل . . ولم يجد القتلة إلا أرضنا نحن يا أبى . .

قال أبى :

-كان أبوه رجلا صعيدياً . . وأغلب أهل القرية من الصعيد . . جدك جاء من خمسين سنة إلى هذه القرية . . من الأقصر . . ماشياً على قدميه . .

قلت :

- مسافة طويلة يا أبى .

-كان يشد مركبا محملة بجرار العسل الأسود . . وتزوج من جدتك معزوزة . . إيه . . رحمها الله . .

وشرد طويلاً . . وجدتنى أسأله . . كنت أحس بأن حديث أبى يقربنى أكثر إليه . . لم نتحدث معاً من قبل . . هذا ما اكتشفته فجأة . فمنذ وعيت وأصبحت قادراً على التعامل مع أبى كصديق . . هاجرت إلى المدينة ، وصرت أشعر بالضآلة كلما مررت بالنصب الرخامى البنى اللون فى ميدان التحرير ، وأدعى الانشغال بالأمور الجادة وأشعر بالجوع .

-كنت تحدثنى عن والد عطية . . الصعيدى . .

تنهد . . وقال :

- دنيا يا ولدى . . كان والده . . يعمل غفيراً فى أرض التفتيش . . وكان . . كما سمعت من حكايات الناس . شرسا . . يتصرف وكأن أرض التفتيش أرضه . .

هو . . لكن حدث أن الباشا . . أراد طرد المزارعين من التفتيش . . لأنهم قلبوا كارتته وكاد يغرق فى المصرف وكانت حكاية كبيرة . . ويظهر أن الباشا أمر أبو عطية بضرب المزارعين بالنار . لكنه رفض . . ولا أعرف كيف انضم أبو عطية إلى المزارعين ضد الباشا . . لكن الذى نعرفه جميعاً هو أن الباشا أحضر بعض اللصوص من الصحرا لقتل أبو عطية . . وذات يوم وجده الناس مقتولا فى جنينة التفتيش . .

وصمت أبى . . فجأة . . ثم توقف . . وضرب باب غرفة الحجز براحتيه العريضتين . . وصاح :

– ياناس . . ياعالم . . ياناس . أنا مظلوم . . مظلوم ياكفرة ! . .

ثم انهار يبكى . . حاولت أن أهدئه . . قلت :

– غداً . . فى الصباح سيفرج عنا يا أبى . . بالتأكيد يا أبى سيأمر وكيل النيابة بالإفراج عنا . .

وأقبل الشاويش النوبتجى . . وأطل بشاربه من فرجة الباب الذى دفعه بذراعه . . وقال :

- أريد أن أنام ياطور أنت وهو .

اقتربت منه . . وقلت بهدوء مرتعش !

- من فضلك . . احنا ناس . . زيك بالضبط .

نظر فى وجهى طويلاً . . ثم قال فى سخرية ذبحتنى :

- آه . . حضرتك . . صحفى ! . .

ثم مضى يقلد صوتى وارتباكى أمام الضابط ووكيل النيابة وهما يستكملان التحقيق معى . . كان يقلدنى بصورة مخجلة إلى حد بعيد . . ثم ضحك وقال :

- إذا سمعت صوت أحدكما . . فلن تمر الليلة بخير .

وأغلق الباب ومضى . . وظل وقع خطواته يصفع أذنى لحظات . قبل أن أفيق إلى نفسى لأجد أننى أصفع وجهى بيدى وأنا أردد فى صوت مكتوم :

- جبان . . جبان . . أنا جبان وسلبى . وصارحت أبى بأننى لست صحفياً كما قلت له ، وإنما أنا مجرد « محرر » من منازلهم ، وأن أجرى ضئيل جداً فى كشوف « المكافآت غير الثابتة » وأننى ذهبت إلى القاهرة بأحلام كبيرة لكننى فقدت هناك كل أحلامى .

و . . فوجئت بأبى يضغط على يدى بقبضتيه الصلبتين . . . ويقول بغضب :

- كفى ياخالد . . اهدأ . اسكت .

كانت عيناه حادتين . . تنذران بأنه سيصفعنى إذا لم أنفذ أوامره . . جلست على بلاط الغرفة البارد . . وبكيت . .

اقترب منى . . وقال :

- لا أعرف لمن تنتسب يا ولدى . . كان جدك يشد المراكب من بحيرة المنزلة حتى أسوان . . يكسر الأمواج . . دون أن يكل . . وأنا . . يعلم الله . . لم أخف من أحد . . أما أنت لقد كان لك خال جدع . . خالك دخل السجن مرة لأنه ضرب ناظر التفتيش وكاد يقتله . . وأنت . . تبكى ! . .

صمت لحظة ثم سألنى فجأة فى غضب :

- أهذا ما تعلمته من الكتب ياخالد !

غامت عيناى . . حاصرنى الماضى كله دفعة واحدة . .

قلت لأبى : كان سهلاً أن أكتب عن أحلامى . . دون أن أحس بكل هذه المتاعب . . عشر سنوات يا أبى . . وأنا فى القاهرة مثل اليتامى ! . .

قاطعنى بحدة :

-كل الناس تتغرب . . فماذا فى هذا . .

استدرت إلى أبى . . نظرت إليه . . رأيت ملامح وجهه الأسمر النحيف . . من خلال غلالة الظلام الخفيفة . . شدنى لمعان عينيه . . نهضت من جلستى واعتدلت قليلا فأصبحت معتمدا على ركبتى كمن يصلى . قلت بصوت أدهشنى أنه يخلو من رعشة التردد التى كانت تعترينى من قبل :

« صدقنى يا أبى . . كنت أظنها فتاة طيبة ، ستعوضنى عن حرمانى من أمى . . ومن صديقتى ليلى . . لكننى وقعت فى الكمين الذى أعدته لى دون أن أدرى . كانت تخاف أن أهجرها مثلما هجرها زوجان من قبلى . . فى هذه التجربة كنت ساذجا . . لأننى وقعت لها على «شيك بدون رصيد» .

أما كتبى يا أبى فلم تعلمنى الجبن . على العكس . علمتنى الكثير من القيم الإنسانية . .

- إذن لماذا تخاف هكذا ؟ صحيح أن البنى آدم لابد أن يخاف . . لكن ليس إلى هذا الحد ياخالد . .

- هذا صحيح يا أبى . . لكن السنوات العشر التى عشتها فى القاهرة سلبتنى إرادتى . . جعلتنى هذا الإنسان الضعيف الذى تراه . كنت فى حاجة إلى أجر معقول يكفى لطعامى ومسكنى . . ويكفى أيضاً لإرسال بعض النقود إليك لكن أجرى كان يتناقص على الدوام ! . .

صمت أبى لحظة طويلة . . لم يعلق على كلامى بحرف واحد . . ظننت أنه نام . . لكنه قال فجأة بصوت حزين :

- أنا لم أقصر فى شىء يا ولدى . . والله وحده يعلم . .

– استغفر الله يا أبى . أعرف أنك فعلت الكثير وتحملت الكثير !

فقال :

– ومازلت ياخالد . . ولن أتردد فى بيع الأرض نفسها والدار . . وكل ما أملك . . لأحقق لك ما تريد . .

وبكى . سمعت نهنهته الخافتة المكتومة . تلسع أذنى . . فأسرعت أقول . . محاولا التخفيف عنه :

– أتذكر يا أبى . . يوم نجحت فى أحد امتحانات الدراسة . . وجلست أنت متباهياً بى أمام أصحابك فى المندرة . . ليلتّها قلت لك إننى أريد ساعة ذهبية . . فحاولت أنت أن تطمئنى وقلت : إن شاء الله عندما تحصل على الشهادة الكبيرة . . لكننى ليلتّها كنت سخيفاً جداً . . قلت لك : أريد الساعة ، فقلت : إنها غالية ياخالد . . فقلت لك بوقاحة . . مازلت أخجل منها . « إما أن تصرف على وإما أن أترك التعليم . . »

لقد أحرجتك أمام أصحابك ليلتّها يا أبى . . فهل تقبل عذرى . . ثم تضاحكت :

– وإن كان اعتذارى قد تأخر عشر سنوات .

تنهد أبى وقال :

– ربنا يسامحنا كلنا . أنت ابنى الوحيد وستحمل اسمى من بعدى

– بعد عمر طويل يا أبى .

عاد يضيف :

– وسترعى أخواتك . إنهن بنات . . لا أحد لهن عمك لديه مشاغله وخالك مات لا أحد لنا جميعا بعد الله غيرك ياخالد . .

وصمت لحظة . . ثم أضاف :

- أمد الله فى عمرك يا ولدى . . وبارك لنا فيك . .

وفجأة مزق صمت نقطة البوليس صراخ امرأة . . وزعيق رجل يهددها :

- سأربيك ياكلبة . . وسأعرف كيف أجعل منك عبرة لأهل البلد . .

كنا وش الفجر وكان الصوت غريبا على أذنى . . سألت أبى من يكون الرجل ومن تكون المرأة . . اللذان جاء بهما البوليس .

أصغى أبى لصوتيهما وهما يجادلان الشاويش النوبتجى . .

ثم قال :

- هوانم وأخوها عطوه . .

قلت :

- ومن هما يا أبى . . فأنا أبدو غريباً عن قريتى بعد هذه الغيبة الطويلة عنها . .

وقبل أن يجيب أبى . . جاءنى صوت الشاويش النوبتجى يزعق ضائق الصدر :

- ليلة سوداء . . لن ننام والأمر لله . العنانى وابنه . . وهوانم وأخوها . . واتفرجى يابلد ! . .

ضحكت . كان فى الأمر جانبه المضحك حقًّا . . برغم ما تركه حديث الشاويش النوبتجى من مرارة فى الحلق . .

قلت لأبى . . هرباً من سخرية الشاويش . .

- يظهر أن لهوانم وشقيقها حكاية طويلة يا أبى . .

فضحك . . نعم ، رأيت وجهه فى غبشة الفجر التى أضاءت غرفة الحجز يضحك وقال :

– لها حكاية أغرب من حكاية أرض العنانى وابنه . . لكن . . المهم الآن متى سنخرج من هنا .

قلت : لا تقلق يا أبى . سنخرج بإذن الله . . لأننا لم نقتل عطية . .

قال :

– المهم أن نخرج بسرعة . . لأن الأرض لابد أن تحرث اليوم . . لتكون جاهزة لزراعة الأرز . .

* * *

سمعت سوت هدى المبحوح ينادينى من خلف جدار نقطة الشرطة :

– خالد . . خالد . آبا . . يابا . .

رفعت صوتى :

– هدى . . طمنى أمك والعيال . .

وبعد لحظة . . دخل أحد العساكر . وأعطانى منديلاً قديماً مربوطاً على فطيرتين وقطعة جبن قريش . . كان الفطير مازال ساخناً . .

أخرجت الطعام وأعطيت للعسكرى بعضه شاكراً له طيبة قلبه وقلت له :

– ممكن تشترى لى سجائر .

قال :

– تحت أمرك .

ابتسمت وقلت له :

– أنت رجل طيب فعلا .

ثم أعطيته نصف ريال كان معى . . لشراء خمس سجاير وبعد أن ذهب قال أبى :

-كل العساكر هنا قلبهم طيب . . لأنهم غلابة مثلنا ! . .

فقلت :

- والشاويش النوبتجى . . ؟ .

فقال أبى :

- لا . . إنه فقط كان يريد أن ينام . .

ونسيت سخرية الشاويش منى ليلة أمس . . وأنا آكل بشراهة . . فقد كنت جائعاً . .

* * *

فى الضحى استدعانا الضابط وذهبنا إلى مكتبه مع أبى فى حراسة الشاويش الذى كان مهذباً معى بالفعل . . وأكد ذلك التحول فى سلوك الشاويش معى . . أكد تفاؤلى . . فقلت لأبى :

- سنخرج الآن يا أبى . . ونعود نحرث الأرض . .

فهز أبى رأسه وانشغل عنى لحظة بتبادل الحديث مع هوانم أمام باب حجرة الضابط .

طال انتظارنا أمام الباب المغلق بضع دقائق . . فطال الحديث بين أبى وبين هوانم . .

وجدتنى أنظر إلى وجهها . . لفت نظرى تناقض ملامحها الجميلة . . مع صوتها الذى سمعته أمس . . قبيل الفجر . . كانت فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها . . سمراء الوجه . . ذكرتنى بوجه صديقتى « ليلى » . . لكن صدرها كان أضخم . وشدتنى أنوثتها الناضجة فى نظرات عينيها . .

لكن صوتها كما سمعته أمس كان خشناً . . صوت رجالى إلى حد كبير . حتى

وهى تحدث أبى . . كانت كالرجل . . وطرحتها السوداء تنساب من رأسها على كتفيها بإهمال يزيد من حلاوتها . .

لاحظت هوانم أننى أنظر إليها . . ابتسمت واحمر وجهها . . وحيتنى بكلمات متعثرة . . قدمنى أبى لها :

- ابنى خالد . . أتذكرينه يا هوانم ؟

واستدار إلىّ ضاحكاً :

- هوانم بنت عمك المرحوم الزناتى . .

بحثت فى ذاكرتى عن عم الزناتى . . أخذت أردد اسمه لنفسى فى صمت . . وأنا أبذل جهداً كبيراً لأتذكر . . ما هذا . . هل غبت عن قريتى كل هذا الدهر من السنين ؟ ! . .

قالت هوانم ضاحكة ضحكة خفيفة لكنها كانت كافية لتصنع غمازتين حلوتين عند تلاقى خديها مع شفتيها الشهيتين قالت :

- كنت ألعب معكم عسكر وحرامية فى جرن ماكينة الطحين . . أتذكر ياخالد أفندى . . ارتبكت . . وضحكت . . وأنقذنى أبى . .

- عمك الزناتى . . صاحب معمل الجبنة . . الله يرحمه . . كان رجلا طيب القلب حقًّا .

وانزاحت ستارة مظلمة من ذاكرتى المكدودة . . وتذكرت ملامح وجه عم الزناتى . . الأسمر الفارع الطول . . كفرسان ملحمة أبو زيد الهلالى . . التى كان يحبها . . ويرويها لأبى كلما جاء يسهر عندنا . .

وقلت لهوانم :

- كان والدك يحب سيرة أبو زيد . . وتذكرت تفاصيل أكثر . . فأضفت

بسرعة وعيناى لا تشبعان من وجهها وعينيها :

–كان يتعارك فى الأفراح إذا لم يرو شاعر الربابة معركة الزناتى مع دياب وأبوزيد . . أتذكرين ؟ ! . .

فضحكت . . ضحكة أعرض من أية ضحكة رأيتها منها . . فكشفت بذلك عن أسنانها اللامعة . . وقالت :

– وكنت أقرأ له سيرتهم فى كتاب أصفر اشتراه ذات يوم عندما سافر لزيارة الحسين والسيدة زينب .

إذن فهى تقرأ . رائعة أنت ياهوانم .

قال أبى . . عندما لاحظ أن وقفتنا ستطول أمام باب الضابط المغلق :

– هوانم . . بألف رجل ياخالد تدير مصنع والدها . . وتحافظ على المال بعينيها . . لكن أخوها عطوة يتشاجر معها كل يوم ويقف لها كالعظمة فى الحلق .

قلت : لابد أنه مخطئ ثم سألتها عن سبب شجاره معها . .

لكن الوقت لم يتسع لها لتجيب . . فقد انفتح باب حجرة الضابط وخرج منه عطوة . .

عرفت . أنه هو . . من نظرته العدائية لهوانم . . ولأنه أمسك طرف شاربه بأصبعه وقال لها بصوت حانق :

– أحلقه إذا لم أربيك ياهوانم . .

ثم خرج مندفعاً . . من نقطة البوليس . .

وشيعته هوانم بضحكة تحد ملحوظة . .

وما لبث الشاويش النوبتجى أن عاد إلينا من حجرة الضابط وهو يقول لهوانم :

- أخذ عليه حضرة الضابط تعهداً كتابياً . . بعدم التعرض لك بعد ذلك . . مبسوطة ياهوانم . .

وأضاءت الفرحة وجه هوانم . . وطلب منها الشاويش أن تخرج وتعود لعملها . . لكنها قالت باحتجاج شديد :

- لن أتحرك قبل أن أطمئن على عم عنانى . . الأصول ياشاويش .

كبرت هوانم فى قلبى وعقلى . . قلت لنفسى لن أنسى لها هذا الجميل . وكان أبى يخفى وجهه فى طرف تلفيعته . . والبكاء يهز جسمه النحيل . . اكتشفت الآن فقط أننا غرباء . . بلا أقارب أو عائلة تساعدنا . . وأن أبى هزيل الجسم إلى حد كبير فعلا . . كيف حدث كل هذا الهزال لجسمه . .

طلب منا الشاويش الدخول إلى مكتب الضابط . فدق قلبى وارتبكت خطواتى . . سبقنى أبى إلى الدخول . . تبادلت نظرة سريعة مع هوانم . . فرأيت فى عينيها ثقة كبيرة . . شجعتنى ابتسامتها وعيناها السوداوان الواسعتان المحاطتان بهالة من كحل ربانى . . ودخلت مكتب الضابط . . وأنا أتساءل فى قلق :

- هل نخرج الآن من الحجز . . لنحرث الأرض ؟ ! . .

الفصل الثالث

كان ضابط البوليس . . رقيقاً معنا . . لاحظت أنه يختار كلماته بدقة . . وأنه لم يكن شرساً كما ظننت طوال ساعات الحجز والتحقيق الذى قام به وكيل النيابة . .

– أنا آسف لاحتجازكما . . لكن الإجراءات كانت تحتم ذلك .

ابتسمت وقلت له :

– عندما طلب أبى أن أحضر إليك لأبلغك بعثورنا على جثة عطية فى الأرض . . كنت أقدر أننا سنقع فى إشكالات . . لكن احتجازى أنا وأبى لم يخطر لى على بال . . وكذلك أسئلة وكيل النيابة . .

ابتسم . . وطلب من أبى أن يستريح . . وأصر على أن يجلس على مقعد أمامه . . وجلس أبى . . ورفضت أنا شاكراً أن أجلس فقدم لى سيجارة . . وأشعلها بنفسه . . فتأكدت من أنه رجل يحرص على علاقته الطيبة مع أهل القرية . . رحت أتابعه وهو يتصفح أوراقاً أمامه فى ملف أصفر ، ثم رفع رأسه ونظر إلى والدى ، فهب واقفاً من مقعده . . وعيناه الذابلتان معلقتان بشفتى الضابط الذى أشار إليه بيده ليجلس وهو يقول :

– اطمئن ياعم عنانى . . اطمئن .

فجأة أضاءت السعادة وجه أبى الأسمر الشاحب . . وجرت الدماء فى وجهه . . كدت ألاحظها وهى تسرى تحت جلد وجهه المشدود ، وفى عروق رقبته

البارزة . وهو يقول فى رجاء :

- الأرض لابد أن أحرثها اليوم . لو تأخرت فى زراعة الأرز عن جيرانى ستغرقها المياه ولن أستطيع أن أحرثها . . لأنها . . (وضحك) كالمصفى لأرض الجيران . . كل الغيطان تنشع مياهها بأرضى .

وقال الضابط :

- أولا أحب أن أقول لك كلمة حق ياعم عنانى . . أنت رجل طيب القلب . . وقد أعجبنى موقفك يوم وافقت على بيع ردم الأرض لنردم به البركة . . وقد اقترحت فى خطاب رسمى للمسئولين أن نسمى المدرسة الجديدة التى تقرر بناؤها على أرض البركة بعد ردمها باسمك ياعم عنانى . .

لمع العرق على جبهتى . . وبلل راحتى . . وارتعشت السيجارةبين شفتى . . وأسرعت أقول موارياً ارتباكى :

- هذا عظيم . . ستدخل التاريخ يا أبى ! . .

أحنى أبى رأسه خجلا . . ووجدتنى فى حاجة ملحة إلى أن أصارح الضابط بالحقيقة . . وأقول له إن أبى لم يبع تراب أرضنا بعمق مترين وبعرض الأرض وطولها . . لدافع وطنى . . أو لأن الجميع رفضوا أن يبيعوا قبضة يد من تراب أراضيهم أو لحل الإشكال الذى وقع فيه المقاول بسبب الطمى فى البحر الصغير والترع . . وإنما الحقيقة أن أبى باع تراب الأرض . . وأفقدها خصوبتها لسنوات طويلة قادمة لأنه فى حاجة إلى ثلاثمائة جنيه ليحمى زرعة عمره الوحيدة . . حتى لا يبور محصول حياته وحصاد الأسرة كلها . . الذى هو أنا . . للأسف ! . .

لكن نظرات أبى نهتنى . . وجعلتنى أسكت . . واكتفيت بالنظر إلى وجه الضابط . . وهو ينظر إلى الأوراق أمامه ثم رفع عينيه ونظر إلى أبى وسأله :

- هل لديك مانع أن تتأخر هنا قليلاً .

ارتبكت . عاودنى الإحساس بالخوف . . وشحب وجه أبى . . وهو يقول بصعوبة :

- لماذا . . خير؟ ! . .

قال الضابط :

- خير بإذن الله . . السيد وكيل النائب العام أرسل يأمر بإخلاء سبيلكما بالضمان

قال أبى :

- ضمان . . كم جنيها . . ؟ !

وازداد شحوب وجهه . . فمن أين لنا بالمال اللازم للضمان . . سنستدين من الحاج عبد الرازق الذى سيصر على أن يوقع أبى على عدة كمبيالات بيضاء . . كأى مراب يعرف كيف ينمى ثروته ويسترد أمواله مضاعفة نقداً وبمقابل من المحاصيل . .

لكن الضابط أخرجنى من تساؤلاتى وحيرتى بقوله :

- يكفى الضمان الشخصى . .

أسرعت أقدم بطاقتى الصحفية للضابط . . كنت أحرص على حملها معى فى حافظة بطاقتى الشخصية وأوراقى الأخرى داخل جيب الصديرى الذى أعاره أبى لى لأرتديه تحت قميصى .

تناول الضابط البطاقة الصحفية . . ونظر إليها ثم أعادها مع ابتسامة ودودة . . وقال :

- أرجو أن تقبل اعتذارى . . إنها الإجراءات .

أسرعت أقول . . سعيداً بمجاملته الذكية هذه :

- لا عليك ياسيدى . . إنها بطاقة جريدة من الدرجة الثالثة . . وضحكت . .

لكن نظرات الضابط كانت تحمل لى تقديراً ملأ قلبى بالثقة إلى حد كبير . . ربما كان ذلك أول إحساس بالتقدير أمارسه . . أو أناله من أحد . . لابد أن الأمور ستسير نحو التحسن يوما ما . .

وفاجأنى الضابط ، بقوله :

– إننى سعيد حقًّا بالتحدث إلى شاب مثلك ياسيد خالد . . وسأحاول شراء كتبك الثلاثة . . لأقرأها . .

دق قلبى . حاصرنى شعورى بالارتباك . إنه إذن يعرف كل شيء عنى . . ويعرف . . القصة المخجلة وراء زواجى من تلك السيدة التى جعلتنى أوقع لها على شيكات بثلاثمائة جنيه . شىء مؤلم حقًّا . . أن تواجه إنساناً ما . . يعرف عنك كل شىء . .

أحنيت رأسى . . كان الضابط يختار كلامه بعناية شديدة . . يبدو أنه حريص ألا يحرجنى بشىء . . سمعته يقول :

– سأستدعى العمدة . . ليوقع على الضمان الشخصى . معذرة . . إنها الإجراءات . فقد نحتاج إليكما مرة أخرى . عند عرض المسألة أمام القضاء . .

شكرت للضابط حسن تصرفه للأمر . . بهذه اللباقة . .

لكن أبى ذعر :

– هل هناك محكمة . . و . .

ابتسم الضابط وقال :

– طبعاً لابد أن يعرض الأمر على محكمة . . إنها الإجراءات .

قال أبى :

–كان رجل ليل . .

قاطعه الضابط :

– صحيح . . لكن أى « شيخ منصر » إذا قتل . . فهو أولا وقبل كل شىء إنسان قتل . . ولابد من أن يتصرف القضاء فى قضيته ويقتص له من الجناة . . برغم كل شىء . .

قال أبى :

– ظننت أن قتله قد أراحكم من أفعاله . .

ابتسم الضابط . . وقال : الأمن العام . . وأمن الإنسان خصوصاً . . مسألة هامة يا عم عنانى ويهمنا أن نعرف الذين . . أو الذى قتل عطية .

ثم رفع سماعة التليفون . . بعد أن أدار يد الجهاز الصغيرة . . وطلب من معاونه استدعاء العمدة على وجه السرعة . .

وضع سماعة التليفون . . وقال لأبى .

– وقع على هذا التعهد . . إجراء لابد منه . .

أعطى أبى قلما فنقش اسمه حروفا متعرجة ملتوية . . ثم جاء دورى . . فقال :

– لك أن تقرأ الإقرار قبل توقيعه . . اقرأه لوالدك . . وقرأت الإقرار . . الذى ينص على أن أكون أنا وأبى تحت تصرف البوليس والنيابة فى أى وقت لاستكمال إجراءات نظر قضية مقتل عطية فى أرضنا . . ووقعت بإمضائى . . وقال الضابط أخيراً لأبى أنه يستطيع الخروج ليحرث أرضه على أن أنتظر أنا ريثما يحضر العمدة .

تردد أبى لحظة . . ونظر إلى . . وإلى الضابط . .

لكننى شجعت أبى على الخروج . . وطمأنه الضابط :

– سيعود إليك خالد فوراً . . بعد أن يحضر العمدة . . إجراءات بسيطة ياعم عنانى . . تفضل أنت . . ثم ضحك وأضاف :

- لتحرث الأرض . . مع السلامة . .

خرج أبى . . وهو ينظر إلى وجهى بقلق . . ابتسمت له . . وعدت أنظر إلى الضابط . . كان يبتسم لى بمودة زائدة . . طلب منى أن أجلس . . لكننى ترددت . . قلت :

- أتسمح لى بالانتظار فى حجرة المعاون . . حتى لا أعطلك . .

فقال :

- كما تشاء . . لكننى أريد أن أوضح لك بعض الغموض الذى يحيط بموقف والدك وموقفك . .

عاودنى الخوف . . والارتباك . . وقلت !

- غموض . إننا قمنا بواجبنا . وجدنا جثة قتيل فى أرضنا وأبلغنا البوليس و . .

فقاطعنى مطمئناً :

- هذا تصرف سليم لاشك فى ذلك . . ولكن . . البحث عن الجناة . . أمر لابد من استكماله . . للوصول إليهم . . مهما كانوا . . وأين كانوا . . وقد أثارنى منذ البداية قول والدك . . « الذين قتلوه . . » أتذكر الجملة . .

قلت :

- على ما أذكر . قال والدى « هل ضاقت الدنيا أمام الذين قتلوه . . ولم يجدوا غير أرضنا . . »

قال الضابط مبتسماً :

- تمام . . هذه هى الجملة التى كان لابد أن تثير شكوكى . . هذا فضلا عن ضرورة قيامى ببحث العلاقة بين الحادث وبين مكان الجريمة . . وهذا أمر بديهى أليس كذلك ؟ . .

لم ينتظر إجابتى . . استطرد قائلاً بنفس هدوئه . . ولباقته .

– ثم . . البحث والتحرى أثبت أن عطية سبق أن عرض على والدك أن يشترى منه الأرض . .

أسرعت أقول :

– لا أعرف هذا الأمر .

قال :

– يستطيع والدك أن يؤكده لك . . وقد سأله السيد وكيل النائب العام فى هذه الواقعة . .

وصمت الضابط لحظة . . انشغل خلالها بتقليب الأوراق أمامه ثم قال :

– وقد أجاب والدك على سؤال النيابة حول هذه النقطة بقوله : « وقرأ من الأوراق أمامه »

– هذا صحيح . . فقد كنت أنقل السباخ إلى الأرض عندما مر بى عطية راكباً حماره . . وتوقف على الطريق وسألنى عن الأحوال وعن صحتى . . ثم قال : « والله أنت صعبان عليه ياعم عنانى . . الأرض بقت بلاعة . . وماكان يصح أبداً أن تبيع ترابها للبركة . فقلت له ، إن الظروف أقوى ياعطية . . فقال ضاحكاً « تبيع الأرض لى ياعم عنانى . . أعملها مرعى للغنم . . قلت له . . غنم إيه ومرعى إيه . . هو انت عندك غنم ياعطية . . فقال لى إنه يفكر فى شراء بعض الأغنام من سوق الأربعاء ليربيها ويختم حياته ختام المسك . . بالحج إلى بيت الله . . واستشهد والدك على هذه الواقعة بجاركم طه جلهوم الذى أقر بصحة ماقاله والدك أمام النيابة . . »

وأغلق الضابط الدوسيه . . وارتكز على المكتب بذراعيه وقال :

– أردت أن أوضح لك الظروف التى قد تحيط موقفك أنت ووالدك بشىء من

الغموض . . وذلك لثقتى فى أنك . . كإنسان مثقف . . ستبلغنى بأى شىء تلاحظه حول هذه القضية « زمان . . كان « الهجانة » يحاصرون قريتى ويسجنون المزارعين حتى يبيع صاحب الأرض محصول القطن ويخصم كل حقوقهم سداداً لديون مبالغ فيها . . »

أسرعت أقول :

– هل تشك فى موقف أبى ؟ . .

قال :

– لا بالطبع . . وإلا لما تركته يخرج الآن أمامك . . وقبل استكمال الإجراءات . . وإنما أنا أحب دائماً أن أعمل بتعاون كلى مع أهل القرية خصوصاً المثقفين منهم . . إننى لست حاكماً لكم . . وإنما أنا هنا لخدمتكم . . هذا ما أردت أن أقوله . .

ابتسمت . . وقلت :

– معذرة . . لقد ظننت . . ربما لوهلة . . أنك تطلب منى أن أكون جاسوساً على أبى إنه تصور خاطئ قادتنى إليه ظنون عابرة . . وهذا خطأ بالتأكيد . .

ابتسم . . وقدم لى سيجارة . . وقال .

– هذا صحيح . . لقد أردت أن أوضح لك أننا قد نضايقكما مرة أخرى . .

وسمح لى أخيراً بالانتظار فى حجرة المعاون . . فخرجت من مكتبه وأنا أشعر بالقلق . . إن كلماته الأخيرة أثارت خوفى الذى أحاول التخلص منه . . ماذا يريد منى الضابط . . ؟ ! لابد أن عودتى إلى القرية . . أثارت شكوكه . . ولم لا . . قد يكون هذا صحيحاً . . قد يكون . .

أفقت على صوت هوانم تقول بمودة ولهفة :

- قلقت عليك ياخالد أفندى . .

نظرت إليها . . إلى عينيها السوداوين . . فجأة شعرت بالثقة تعود إلى نفسى . . ابتسمت . . ووقفت صامتاً أمامها . . لقد أثارنى اهتمامها بى . . قلت :

- خرج أبى . .

قالت :

- رأيته .

وابتسمت لى بمودة شديدة ! . .

ابتسمت لها . وأنا أقول لنفسى :

- إلى أين تقودنى خطواتى فى قريتى . . عطية . . وجثته فى أرضنا بعد عودتى بشهر واحد وهوانم . . وتذكرت ما قاله الشاويش النوبتجى أمس «ليلة سوداء . . العنانى وابنه . . وهوانم وأخوها» . . وحاولت أن أصل إلى حقيقة الأمر . . هل هناك علاقة من نوع ما تربط بين العنانى وابنه . . وبين هوانم وأخيها . . شىء غريب حقًّا أن أفكر فى ذلك . . لكن . . ماذا أراد منى الضابط صراحة . .

حاصرتنى التساؤلات . . فحدقت أكثر فى عينى هوانم المثيرتين . . وجدتنى مشدوداً إليها . . ودق قلبى . . لكننى همست لنفسى :

- ما أقل ما تعلمته من الكتب . . !

اتسعت عينا هوانم . . بدهشة بالغة وسألتنى :

- خالد أفندى . .

نظرت إليها أكثر ، ذكرتنى شخصيتها بـ . . ليلى . . صديقتى الغالية التى ذهبت . .

- أنت تكلم نفسك .

خجلت . . أحنيت رأسى . . قلت بارتباك :

– أبدا . . فقط . . إننى فى حاجة إلى التعرف على قريتى . .

وابتسمت . . وأضفت وأنا أعود للنظر إلى عينيها :

– إننى لا أعرف شيئاً عنكم . . عن البلد كلها . .

قالت :

– عشر سنوات . . عمر طويل ياخالد أفندى . .

اتسعت ابتسامتى . . للرقة التى كانت تغلف صوتها وقلت :

– هذا صحيح : ويبدو أن أشياء كثيرة حدثت . . ولابد أن أعرفها . .

انتبهت لقولى « لابد » . . لماذا ؟ . . لا أعرف الآن . . إننى فقط كنت مدفوعاً وراء تساؤلات محيرة . . أشعر بها تؤلمنى . . هل هناك علاقة بين العنانى وابنه . . وبين هوانم وشقيقها . . وماذا يريد منى الضابط بالضبط ؟ !

قد أكون واهماً . . لم لا ؟ .

قالت :

– ألم توحشك القرية ياخالد أفندى ؟

عدت أنظر إلى عينيها . . لوتعرف كم أوحشتنى قريتى . . وكم كنت ضائعاً قبل عودتى إليها . . لو تعرف أن عينيها فى لون عينى ليلى التى ملت عبثى و « استهتارى » كما كانت تقول لى . .

قلت مبتسماً لعينيها :

– المهم أن تفتح القرية قلبها للعائد . .

قالت وهى تحاول أن تغلق فتحة جلبابها فوق صدرها النافر :

– كان عم عنانى فى حاجة إلى من يساعده ، وكانت عودتك إليه أمنية يحكى

عنها لأمك وأخواتك . . أنا سمعته بنفسى مرات عندما كنت أشترى طواجن اللبن من أمك فى الدار . . .

قلت :

– وأنا أيضاً كنت فى حاجة إلى أن أعود إليهم . .

وانتبهت إلى أن وقتا طويلا قد مر علينا ونحن لن نشبع من الحديث . . خطر لى أن أسألها :

– تزوجت يا هوانم ؟ . .

ارتبكت لحظة . . لاحظت ذلك فى يديها اللتين أسرعتا تجذبان طرحتها المهدلة على كتفيها . . وفى أصابعها التى تشد رباط رأسها لتدارى خصلة الشعر السوداء الناعمة المدلاة على جبهتها التى لوحتها الشمس . . وظلت صامتة .

وفى اللحظة التالية . . رأيت العمدة . . يدخل من باب نقطة البوليس كان كمن يمثل دوراً مكتوباً له بعناية شديدة ، يخطو فى ثوبه « الكشمير » وفى يده خيزرانته . . يبدو واثقاً من قدرته على الاستمتاع برضى الضابط عنه .

حاولت أن أبتسم له لكنه تجاهلنى ودخل حجرة الضابط !

قالت هوانم :

– لا تشغل بالك . ستخرج بإذن الله . .

ابتسمت لها . . وقلت . . ربما لأهرب من قلقى :

– لم تخبرينى بعد . . هل تزوجت ياهوانم . .

لمعت عيناها بوميض خافت . . وقالت :

– طلب عطية . . الله يرحمه . . يدى قبل أن يقتل بأسبوع . .

قلت بفزع :

- عطية الذى قتل فى أرضنا ؟

هزت رأسها . . وقالت بصوت غائم :

- لم يكن بالبلد غير عطية واحد . . ثم استأذنت بابتسامة مرتعشة وتركتنى . . وخرجت !

الفصل الرابع

عندما عدت إلى البيت .. أخذتنى أمى إلى حضنها .. شعرت بدفء رائع . تمنيت أن أذوب فى حضنها .. وأختفى من الدنيا تماماً قبلتنى أختى وجلست مجهداً وضعت أمى طعام الغداء على الطبلية الخشب القديمة .. وضعت هدى طبق الزبد الكبير .. وملأت أنفى رائحة الطعام .. شعرت بأننى جائع للغاية .. مزقت أمى دكر البط المحمر بالسمن ووزعت علينا كتلا من لحمه الدسم ..

سألت :

- وأبى .. ؟

قالت أمى إنها أرسلت إليه غداءه مع أفراح .. لأن هدى كانت متعبة ولم تستطع أن تسرح إلى الغيط ..

قلت مداعباً هدى :

- اعملى لها ياأمى طاسة الخضة ..

قالت هدى :

- ركبى سايبة ياخالد ..

قالت أمى :

- دعونا من هذه السيرة .. كلوا .. واشبعوا ..

ووضعت أمامى قطعة من كبد دكر البط ..

سألت أمى :

– ألم تأت خطابات اليوم من القاهرة .. ؟

تذكرت فجأة ..

– لقد نسيت ياخالد .. ثم شيعت المرحوم عطية ببعض الدعاء الذى يقصم الظهر .. وطلبت من هدى أن تأتى بالخطاب الذى وضعته فى الصباح تحت مخدة السرير ..

رأيت شعار جريدة الحرية على المظروف .. هدأ خاطرى .. وارتعشت ذكريات عديدة فى ذهنى .. فتحت المظروف .. ومسحت أصابعى فى بنطلونى وأخرجت الخطاب .. كانت به حوالة بريدية ابتسمت وقلت :

– الحمد لله

كانت بمبلغ ضئيل .. لكنه على أى حال مبلغ طيب .. قرأت الرسالة وتكدرت .. لاحظت أمى .. قالت :

– خيراً يا ولدى .. أكمل طعامك أولا ..

أخذت أكمل طعامى .. حاولت أن أخرج من حالة الضيق التى حاصرتنى داعبت أختى الصغيرة مديحة :

– ستدخلين المدرسة الجديدة يامديحة .. بعد أن تهدمت مدرستك ..

قالت هدى :

– المدرسة الجديدة .. يبحثون لها عن أرض لبنائها ..

قلت :

– ستبنى على أرض البركة .. فوق تراب أرضنا ..

قالت أمى :

- لاتتحمل .

قلت :

- تراب أرضنا خسع إذن .. وضحكت ..

قالت أمى :

- لا .. البركة كانت غويطة .. الردم سيهبط .. لاتصلح للبناء فوقها إلا بعد عشر سنوات ..

أعجبنى ذكاء أمى .. داعبتها :

- ماشاء الله على الفراسة لقد عرفت الآن ممن ورثت ذكائى ..

ابتسمت وقالت :

- بارك الله فيك يابنى .. وحفظك من عيون الناس ..

قالت هدى :

-كان المقاول والمهندس يعاينان أرض البركة اليوم .. ليتهما سألاك يا أمى قبل أن يتعبا فى المعاينة ..

أعجبتنى مداعبة أختى هدى .. كانت أذكى وأصدق من دعابتى .. ولاحظت شيئاً غريبا .. إننى لم أخرج بعد من ذاتيتى .. حتى دعابتى لأمى .. كانت أنانية منى .. تذكرت ماقلته لها .. وجدته تقريظاً لذكائى الذى أدعيه .. وليس لذكائها هى .. كلماتى فى حاجة إلى مراجعة دقيقة .. أشياء كثيرة فى حياتى تحتاج إلى إعادة النظر .. لم ألتحم بهم بعد .. بما يكفى .. لكى أنسى خالد العنانى الذى عاش عشر سنوات من عمره فى القاهرة .. فى شقة الزقاق المتفرع من شارع السد .. حيث كانت أنفاسى هى مؤنسى الوحيد فى وحدتى .. حتى فى تلك اللحظات التى كنت أقضيها مع صديقتى «ليلى» قبل أن تتركنى لأسقط فى قبضة «زوجتى» .. ذات

الشيكات التى سلطت على عنقى .. كالمقصلة ..

أفقت على صوت أمى :

- أين ذهبت ياخالد .. فيم تفكر يا ولدى ؟

اكتشفت أننى كنت غارقاً فى ذاتيتى .. ابتسمت معتذراً .. قلت :

- أبداً .. !

قالت :

- هل فى الخطاب شىء يا ولدى ..

تذكرت رسالة رئيس التحرير . قرأتها مرة أخرى .. كانت مقتضبة .. واضحة :

«عزيزى خالد . يؤسفنى أن أبلغك أننى مضطر للتقيد باللوائح الخاصة بالعمل . أنا أقدر عملك الذى تقوم به حقًّا .. لكن نظام عملنا بالجريدة ينص على ضرورة حضورك إلى العمل يوميًّا .. وعلى ذلك فيؤسفنى أن أبلغك أننى سأوقف مكافأتك من تاريخ تغيبك عن العمل .. ومن ناحيتى أنا .. فسأنشر كل ماترسله لى من موضوعات أو مقالات أو قصص .. فهذا يسعدنى إلى حد كبير .. وأرجو أن تقبل الأجر الضئيل الذى سأرسله إليك مقابل عملك معنا بنظام «القطعة» .. ولك تحياتى

إمضاء

* * *

ابتسمت .

قالت أمى :

خير .. ؟

قلت : خير .. !

كنت قد تذكرت «نظام القطعة» الذى عذبنى تسع سنوات إننى لم أعين بجريدة الحرية ، ولم أتقاض راتباً شهريًّا إلا منذ عام فقط .. لكنه كان ضئيلا لدرجة لاتكفى احتياجاتى فى المدينة واحتياجات أسرتى فى القرية ..

قلت : حسناً ياصديقى .. !

أنهيت طعامى .. ونهضت :

– الشاى يا خالد .

قدمت لى هدى كوب الشاى .. احتسيته بسرعة .. وتذكرت أننى فى القاهرة لم أكن أفعل ذلك .. كنت أفضله بارداً .. لكن حلقى الآن لايلتهب من الشاى الساخن . شىء رائع حقًّا .. لابد أننى تغيرت إلى حد ما .. أخذت طريقى إلى الأرض .. ومعى مديحة الصغيرة . آخر العنقود .. دخلت المدرسة هذا العام .. وهى فرحة بكتبها ذات الرسوم الملونة .

قلت لها : أتعرفين يا مديحة .. أنا دخلت المدرسة بالصدفة ..

ابتسمت .. أكملت لها ويدى تمسك بأصابعها الصغيرة الدقيقة :

–كان ذلك عام ١٩٤٨ .. عندما بنى الحاج فهمى .. مرشح الوفد .. مدرسة ابتدائية ليفوز بثقة أهل البلد ويضمن أصواتهم ..

ضحكت للذكرى : لو أنه لم يبن المدرسة .. لاشىء .. كنت سأبقى مع أبى فى الأرض ..

قلت لمديحة : سنة ١٩٥٠ أو ١٩٥١ لا أذكر .. قتل من القرية عشرة رجال .. فى معركة بين أنصار مرشح الوفديين ومرشح السعديين .. ضربوا بعضهم بالنار.. يومها رأيت الدماء والناس تصرخ فهرولت إلى الدار خائفاً .. أرتعش ..

ابتسمت مديحة وقالت :

- أبله قالت لنا إن الحكومة ستبنى لنا مدرسة جديدة .

كنا نقترب من أرض البركة .. لايزال اسمها أرض البركة .. خطوت إليها .. كانت كالملعب الواسع .. لونها أسود .. ترابها جاف .. متشقق .. ارتعشت قدمى وأنا أدوس التراب .. إنه تراب العنانى .. أرض العنانى . . التراب الذى أعاد إلىّ حريتى .. خلصنى من الشيكات التى بلا رصيد .. أحنيت رأسى ..

وقلت : أرض العنانى . حكاية لابد أن ترويها الأجيال .. مثل حكاية الأدهم .. أرض العنانى .. أرض العنانى .. اكتشفت أننى أردد نفس الجملة .. بحماس بالغ .. ولكننى فجأة .. تذكرت ما قاله الشاويش النوبتجى ليلة أمس فى نقطة البوليس «العنانى وابنه وهوانم وشقيقها» .. و .. هوانم ، اعترفت لى أن عطية كان قد طلب يدها قبل مقتله بأسبوع .. مامعنى هذا ؟ ..

سألت مديحة :

- تعرفى هوانم يا مديحة .. ؟

قالت :

- هوانم .. بتاعة معمل اللبن .. نشترى منها جبنة كل يوم .. لنفطر بها .

قلت : هل تتخانق مع أخيها عطوة كثيراً ؟

قالت :

- كل يوم .. أصله عاوز يأخذ معمل اللبن لنفسه ومراته عديلة تتخانق كل يوم مع هوانم ..

سألتها :

- والناس .. مارأيهم فى هوانم .

قالت : البلد كلها تحبها . أصلها شاطرة ..

ابتسمت .. لكن القلق مازال يحاصرنى . كنت أشعر أن هناك علاقة ما .. بين هوانم ومقتل عطية فى أرضنا ..

* * *

سرت بجوار المحراث .. وأبى يدوس بقدمه على مؤخرته ليغوص سلاحه فى الأرض ويقلبها .. قال والتراب على وجهه .. لايخفى فرحته :

- خرجت يا خالد ..

- قبل الظهر .

وتذكرت ماقاله لى الضابط ..

أخذت يد المحراث من أبى .. وضغطت بقدمى على مؤخرته .. وتعثرت لحظة لاضطرارى أن أحجل بقدم واحدة بتناسق مع قدمى الموضوعة على مؤخرة المحراث .. وصفعنى ذيل الجاموسة المبلل ببولها .. لم أهتم .. مسحت عينى بكم قميصى .. قلت لأبى :

- جاءنى خطاب من الجريدة اليوم .

قال :

- خير . به نقود . ؟

قلت :

- خمسة جنيهات

قال :

- الحمد لله .. سنشترى شتل الأرز الحمد لله

أعطيت الحوالة البريدية لأبى .. وقلت :

- غداً نصرف المبلغ من البوستة ..

أخذ الحوالة .. وقال :

- فى يوم .. كنت فى البوستة لإرسال خمسة جنيهات لك .. أتذكر .. يومها رأيت رجلا عجوزاً من قرية الدراكسة المجاورة ..

قلت : أعرفها ..

قال :

- يومها وجدت الرجل يتسلم حوالة بخمسة جنيهات أرسلها له ولده الذى يعمل سائقاً بالسد العالى ..

ضحكت وقلت :

- أظن يومها تمنيت أن أكون مثله ..

قال أبى :

- كل شىء نصيب ياخالد ..

مرت لحظات .. والمحراث يقلب الأرض والشمس تلسع قفاى .. وذيل الجاموسة يصفعنى على وجهى من حين لآخر .. لاحظ أبى ذلك فلسعها بالفرقلة .. فاندفعت بالمحراث واندفعت معها البقرة .. فكدت أنكفئ على وجهى فأسرع أبى إلى المحراث وأمسك بمقبضه ..

أشعلت سيجارة وسرت بجوار أبى .

وصل المحراث إلى نهاية الفدانين .. إلى الركن الذى وجدنا به الجثة أمس .. تكدر وجه أبى .. لسع البهائم بالفرقلة كأنه يريد أن ينتهى من هذا الركن بسرعة .. قلت :

- هل عرض عطية يا أبى أن يشترى الأرض .. ؟

نظر إليّ وقال :

- حصل .

- ثم سأل :

- من قال لك ياخالد .

بدأ الشك يلسعنى . أسرعت أقول : - لماذا أخفيت ذلك عنى يا أبى ؟

قال :

- لأنه لايهم ياخالد . الرجل كان يضحك معى بكلمتين ..

قلت :

- كان .. أقصد .. لوكنت قد عرفت ذلك منك لكان أفضل ..

قال :

- كنت خائفاً جداًّ يا خالد .. لم أجدك فى وعيك .. ولو قلت لك ذلك لربما ظننت شيئاً .. ربما .. فقدت تماسكك .. وضحك .. وقال :

- لا أعرف .. لماذا تشعر بالخوف هكذا .. جمد قلبك ياخالد .. كن رجلا ياولد ! ..

مرت لحظات .. وأنا أفكر فى الأمر ببطء شديد .. ثم قلت :

- لا أعرف يا أبى .. يشغلنى أمر غريب منذ الصباح ..

قال وهو يضغط مؤخرة المحراث ليغوص أكثر فى الأرض ويقلبها :

- خير .

قلت :

- يخيل إلى أن هناك علاقة بين مقتل عطية فى أرضنا .. وبين هوانم وشقيقها عطوة .. لا أعرف كيف .. لكننى مشغول بهذا الأمر .

ضحك أبى وقال :

- يبدو أنك عرفت أخباراً كثيرة اليوم .. وهذا شىء عظيم .. إننى فرح جداً بهذا ..

قلت :

- لماذا ؟

قال :

- لأن معناه أنك بدأت تتخلص من انطوائك على نفسك منذ رجعت من القاهرة .. وبدأت تعرف البلد .. والناس .. وصدقنى يا ولدى .. الناس طيبون جدا .. وستجد هنا الكثير الذى سيفيدك أكثر من كتبك .. ولسع الجاموسة بالفرقلة .. وقال :

- المهم .. أن تكون على حذر ..

- على حذر .. ممن يا أبى .. ؟

- من حكاية هوانم هذه .. هى بنت طيبة وشاطرة .. ومكافحة صحيح .. لكن .. عا .. عا .. ولسع البقرة بالفرقلة .. عند ماتلكأت .. وقال :

- يامديحة .. هات الفأس ..

وأسرعت مديحة تحمل الفأس من عند رأس الأرض .. وأعطانى أبى يد المحراث وقال :

- احرث هذه المنطقة .. وسأعزق بالفأس الأرض بجوار الجسر ..

مضيت وراء المحراث .. ويدى قابضة على يده الخشبية وقدمى تدوس على مؤخرته .. والأرض تتقلب أمامى .. طرية .. سوداء .. بها قواقع وبعض الدود .. والشمس تلسع الطين .. وتلسع قفاى .. وعيناى تحدقان فى خط الشجر الأخضر

على شط ترعة أم شوشة من بين قرنى البقرة .. التى تنظر إلى الجاموسة من حين لآخر وكأنها تلومها على تراخيها وإلقاء العبء كله على كتفها هى وحدها ..

وكانت مديحة تجرى بمرح بجوار المحراث .. وأفكارى تتقافز فى رأسى باضطراب غريب .. ماذا عن «حكاية هوانم» يا أبى ؟ ! .. سألته وأنا امر بجواره ويدى تهتز على مقبض المحراث ..

رفع أبى هامته النحيلة قليلا ، ثم تفل فى راحتيه وفركها وعاد يقبض على فأسه وهو يقول :

- حكاية يطول شرحها ياخالد أفندى ! ..

وعاد للصمت ، فانغرست عيناى فى الخطوط السوداء التى يصنعها حد المحراث فى جوف الأرض الواطئة بين أراضى الجيران وأنا أحاول أن أخمن ؟ ! ..

الفصل الخامس

الليل فى قريتى .. له طعم مريح .. السكون يلف كل شىء .. ولايقطعه من حين لآخر إلا الأصوات المألوفة لخوار الماشية أو مأمأة الأغنام أو نباح الكلاب ، هناك فى أرض البركة .. وصرير الصراصير أو نقيق الضفادع .. لكن كل هذه الأصوات تصبح جزءاً من طبيعة سكون الليل فى القرية ، إذا اعتدت عليها وجدتها مثل لدغات الباعوض المملة ! .

قلت لأبى بعد أن تناولنا العشاء .. ونامت أخواتى الصغيرات وبقيت هدى تغالب رغبتها فى النوم بجوار أمى الجالسة قبالتنا فى حوش الدار .

– قهوة أبو المجد مازالت تجمع هواة الأحاديث يا أبى .. أليس كذلك ؟

قال :

– إنهم يتجمعون كل ليلة حول عبد الكريم .. مفتى القرية .

ضحكت وقلت :

– إنه مفتى فعلا .. كنت أسميه العرضحالجى .. لكنك اخترت أنسب الأسماء .. فله فى كل مشكلة رأى وحل ..

قالت أمى :

– ذهبت إليه عندما حجزوكما فى نقطة البوليس ليكتب لى عريضة أقدمها للضابط ..

وأكملت هدى :

- لكنه رفض .

سأل أبى بدهشة غير مصدق .

- رفض أن يكتب العريضة ؟

أسرعت أمى تصحح معلومات أختى :

- رفض .. وقال : لاتقلقى يا أم خالد .. سيخرجان لأنهما لم يقتلا عطية ولأنهما شهود فقط .. شهود على وجود الجثة فى أرضكم .. وليس على ارتكاب الجريمة .

وأضافت : دماغه كبيرة .. ويعرف كل شىء ..

قال أبى :

- أكل عيشه .. لكنه والله رجل قلبه طيب .. يسافر إلى المركز والمديرية والمحافظة وإلى الوزارة نفسها بعرايض الناس ..

قالت أمى :

-كله بالفلوس ..

وكرر أبى :

- أكل عيش يا أم خالد .

ووجدت فى نفسى رغبة ملحة للاستطراد فى هذه الأحاديث .كنت أود الهرب من الأفكار التى تطاردنى .. كانت جريمة مقتل عطية فى أرضنا .. وما أحسه من علاقة بينها وبين هوانم وأخيها تقلقنى .. لكننى مازلت عاجزا عن اكتشاف هذه العلاقة .. وفى نفس الوقت .. أود الهرب من المعنى الذى فهمته من كلام الضابط .

قلت لأبى :

- سأذهب إلى مقهى أبو المجد .. بعض الوقت ...هل تأتى معى ..

قال :

- هى فرصة طيبة لتتخلص من انطوائك ياخالد .. اذهب أنت .. أما أنا .. فسأحلب البقرة وأرضع العجلة من الجاموسة .. وأنام .. لأننا سنعلق الساقية قرب الفجر .. لنروى الأرض ..

نهضت ولبست المداس الذى أعاره لى أبى .. حتى لا أستهلك حذائى .. وقالت أمى :

- إلبس «سكو» أبيك ..

وقامت هدى وأحضرت البالطو القديم الذى كان أبى قد اشتراه من سوق الأربعاء من مخلفات الجيش منذ سنوات .. كانت به بضع رقع من قماش يختلف عن لونه .. لكن التراب والطين جعلاه فى لون متقارب .. وضعته على كتفى .. وخرجت إلى الزقاق الضيق المتعرج .. وصدمت قدمى بقالب طوب الحنيت وحملته إلى جوار جدار وسرت .. على هدى ضوء فانوس به شعلة من الجاز .. تكاد تحتضر ..

لفتت شعلة الفانوس انتباهى إلى شىء .. هو : ضرورة إنارة القرية بالكهرباء .. خاصة وأن مشروع السد العالى كاد ينتهى ووصلت كهربته إلى القاهرة والإسكندرية ..

قلت لنفسى :

- إنه موضوع مقالة سأكتبها غداً وأرسلها إلى الجريدة. وأضفت :

- وهذه خمسة جنيهات أخرى ندبر بها أمورنا .. وسرعان ماااكتشفت أن

مشاكل قريتى ستكون مورد رزق لى ولأسرتى إلى وقت طويل .. إذا كان أصدقاء أبى من المزارعين والفلاحين لا يملكون مايساعدوننا به غير إعارتنا جاموسة أو حماراً أو محراثاً .. أو ابناً من أبنائهم ليزامل إخوتى فى العمل بالأرض .. فإن مشاكلهم وكتابتى عنها .. تشكل دخلا لابأس به .. وصارحت نفسى .. وأنا أحس بالمرارة : «إنها مسألة نفعية إذن ! .. »

دخلت مقهى أبو المجد . ألقيت السلام وأنا أبذل جهداً كبيراً للتخلص من ارتباكى .. ومن زغللة عينى أمام ضوء الكلوب الذى «يوش» فى سقف المقهى ويجذب الفراشات والناموس من النافذة .. رحب بى الرجال .. وصفق الحاج عبد الكريم بيديه وطلب لى فنجان قهوة .. لكن أبو المجد العجوز .. قال من خلف نصبة المقهى :

– على حسابى أنا هذه القهوة . يا مرحباً .. يا مرحباً .. شرفتنا والله يا خالد أفندى ..

قبالة الحاج عبد الكريم جلست على مقعد صنعت قاعدته من السمار المجدول .. وجدتنى أنظر إلى وجه الرجل .. وشاربه .. وعينيه الحادتى الإبصار .. وطربوشه الأغبر اللون .. كان شكله ملفتاً للنظر فى جلبابه الصوف الكشمير العتيق .. وأكمامه الواسعة ذات القيطان الحريرى الباهت اللون . وصديريه ذى الأزرار الصوفية .. الذى يكشف عنه صدر جلبابه المفتوح ..

قال لى وثمة رذاذ خفيف يتطاير من فمه .. ينفلت بقوة كلماته من خلال أسنانه التى سقط بعضها فى رحلة السبعين عاماً :

– أرجو أن تكون الأزمة قد مرت بسلام ..

قلت :

- وأنا أرجو ذلك . فمازال للأمر ذيوله المعقدة ..

قال وهو يجذب نفساً متقطعا من غابة الجوزة :

- إنها إجراءات معقدة .. ولزوم مايلزم كما يقولون .. فرجل مثل عطية .. لم يكن قتله سهلا .. وصمت برهة .. وجذب نفساً طويلا ثم أخرج الدخان من أنفه .. وسعل .. وعاد يقول :

- له أعداء فى كل الدائرة .. فى الدراكسة .. والبجلات وميت تمامه .. والنزل ..

وضحك وقال : الحقيقة أن أعداءه أكثر من أصدقائه .. فلم يكن هناك أحد يحبه أبدا

قلت وأنا أرتشف رشفة سريعة من فنجان القهوة :

- لكننى عرفت أن الناس فى قريتنا كانوا يحبونه ..

قال ببساطة :

- كانوا يخافون من بطشه .. وشره . هذا هو كل شىء .. لكن ذلك لم يمنع أن تنتهى حياته بيد واحد من قريتنا .

ذعرت .. ودق قلبى .. وقلت بذهول :

- واحد من قريتنا ؟ ..

هز رأسه .. وهرش مؤخرتها فمال الطربوش قليلا على جبهته ..

وعاد يقول :

- كل البلد تعرف .

- لكن ضابط البوليس ..

أضاف :

- وهو أيضا يعرف .. أو على أسوأ الفروض .. سيعرف ! ..

- غير معقول .. لماذا لم يقبض عليه .

ضحك الحاج عبد الكريم وقال :

- لا أعرف .. لكننى لو كنت مكانه لما قبضت على القاتل الآن .. حتى أجمع الأدلة الكافية ..

قلت وأنا أدخن سيجارتى :

- إذن .. لاتوجد أدلة حتى الآن ..

- ولا دليل واحد .. مجرد شبهة .. والشبهة لاتقوم مقام الدليل الدامغ كما تعرف .. لكنها بالمراقبة والتحرى يمكن أن تؤدى إلى إثبات الدليل ..

وانتابنى الصمت فترة طويلة .. ودوامات الأسئلة تحاصرنى .. وتفور بداخلى .. وأنا كمن وجد نفسه فى موجات متدافعة دون أن يعرف أين يجد الشاطئ الذى ينقذه .

قال الرجل أخيراً :

- لا عليك ياخالد أفندى .. غداً .. تعرف الألغاز التى تحدث فى قريتك .. فقط .. عندما تأخذ وتعطى مع الناس ..

قلت له :

- الحقيقة أن انشغالى مع أبى فى الفدانين .. هو الذى يمنعنى من معرفة الكثير عن القرية ..

ضحك الرجل . وقال :

- ظننت أن انشغالك بأرض أبيك هو الذى سيدفعك إلى التحام أكبر بالناس ..

قلت :

- هذا مايجب فعلا .. لكن .. إنها تلك السنوات التى عشتها فى القاهرة .. كما تعرف .

طلب الرجل جوزة أخرى .. أحضرها له أبو المجد .. وهو «يولعها» بجذب أنفاس متلاحقة منها ..

جذب المفتى .. كما سماه أبى .. نفساً طويلا .. ثم أخرج الدخان من أنفه .. وقال وهو يكتم سعاله فى صدره :

- تقصد تلك السنوات التى قضيتها مع كتبك وحدها ..

قلت وأنا أشعر بشىء من الخجل :

- الواقع أن كتبى كانت سبيلا لأكل العيش .. كان لابد من القراءة لأتمكن من أداء عملى الصحفى ..

قال :

- هذا لاخلاف عليه .. لكنه لايكفى .. فمن يبنى ثقافته على الكتب وحدها يتجمد .. كما يقولون ! ..

- أنا معك .. أوافقك .. لكننى بدأت أعوض ماينقصنى هنا ..

قال الرجل وهو يقلب عينيه فى وجهى .. فبدت أكثر احمراراً .

- لم تبدأ بعد .. فمازلت فى حاجة إلى المرونة الكافية ..

اتسعت عيناى دهشة .. لم أكن أصدقه .. على الأقل لأن الجريدة قد نشرت اليوم مقالة جديدة لى عن مكاسب المزارعين فى ظل الثورة .. قلت للمفتى هذا .. فقال :

- قرأت مقالك اليوم .. أعجبتنى حماستك ياخالد أفندى .. ومنذ فترة وأنا

معجب بحماستك لقضية الفلاح وأتابع كتابتك عنها .. لكن الذى أختلف معك فيه هو أنك تعتبر ثورات الفلاحين ضد الاحتلال الإنجليزى وصدقى باشا .. هو بداية هذه الثورات .. إنك بذلك تظلم الفلاح الذى تحمست له ياخالد افندى ..

اكتفيت بالصمت .. وأنا أنظر إلى عينى «المفتى» كان بحراً من المعلومات .. كما بدا لى

قال :

- لقد عرفت مصر ثورات للفلاحين والمزارعين قبل ذلك بكثير .. ولو قرأت «ابن اياس» مثلا لعرفت أن ثورة زراعية كبرى قامت فى الصعيد عام ١٣٥٣ (٧٥٤ هجرية) بزعامة ابن الأحدب شيخ أحد القبائل هناك .. وقد حرص المماليك على أن يتقاضوا الخراج نقداً من فلاحى الوجه البحرى ليلزموا الفلاحين ببيع محاصيلهم بالسعر الذى يحدده أمراء الإقطاع .. الذين كانوا يسيطرون على سوق القمح . ويحكى لنا «ابن اياس» عن ذلك ويقول إن الفلاحين كانوا كثيراً مايقصدون المدينة لشراء الخبز تصور .. (صمت لحظة .. تنهد .. ثم قال :)

«كان الفلاحون يلجأون أحيانا إلى حرق القمح أو سرقته وإخفائه لإجبار الأمراء المماليك على التسليم بالنزول عن الخراج أو تخفيضه .. وكثيراً ما اضطر الفلاحون إلى تجويع العاصمة .. انتقاماً من حملات التنكيل التى كان المماليك يقومون بها ضد الفلاحين .. كما جاء فى «الحوادث» لابن تغرى بردى .. وقد حدثت أهم الثورات التى تم فيها الاستيلاء على القمح فى مدن البحيرة وبعد ذلك فى الصعيد ثم قامت الثورة فى جميع أرجاء مصر .. ويقال إن «ابن الأحدب» أسس أول جمهورية فى الدنيا .. ويقال إنه همام ..

وصمت الرجل لحظة .. وحدق فى وجهى بعينيه الحادتى البريق .. وأنا مأخوذ

بعلمه .. وذاكرته .. وحديثه ..

قلت فى نفسى إنه ليس عرضحالجياً كما أسميه وليس « المفتى » كما يسميه ابى .. إنه .. تاريخ بلدى .. ذاكرة قريتى الواعية .. ولم تفعل السبعون عاما شيئا بهذه الذاكرة التى تحفظ تاريخ البلد .

قلت له :

– إننى أشعر بالأسف حقًّا لأننى لم أقرأ هذه الكتب .. القديمة .

قال ببساطة وهو يعدل من وضع طربوشه الحائل اللون فوق رأسه الأشيب :

– قلت لك يا ولدى .. إن من يبنى ثقافته على الكتب وحدها يتجمد .. المهم .. أن يكون مرناً .. يقرأ .. ويساير الحياة بتجاربها اليومية ..

وصمت برهة .. ثم قال بألم شديد :

– أنتم جيل كسول .. اتكالى .. لا أعرف ماذا حدث لكم أيها الشبان .. لم هذا التراخى ؟ إن الكتب لاحصر لها بدار الكتب .. وكانت هوايتى هى المرور على شارع محمد على لكى أنال المتعتين .. أزور بعض النسوة .. ولامؤاخذة يا ولدى .. ثم فى اليوم التالى أذهب إلى دار الكتب ..

وضحك الرجل وقال :

– ما رأيت شارعاً فى البلد يضم المتعتين معاً .. متعة الجسد .. ومتعة العقل .. مثلما وجدت فى شارع محمد على .. ألم تذهب إلى هناك ياخالد أفندى ؟ ! . .

قلت وأنا أشعر بالخجل من معنى سؤاله :

– ذهبت إلى دار الكتب لاستكمال بعض معلومات كانت تلزمنى لكتابة تحقيق صحفى ..

قال غير مصدق :

- فقط ! ..

وغرق مرة ثانية فى صمته ، وجذب أنفاس الجوزة التى تلمع نيرانها على الحجر الصغير .. المليء بالمعسل تحت بصابيص النار .. وأنا أحاول أن أجد مبرراً لجهلى الذى لاحظه عبد الكريم . وقلت لنفسى إن انشغالى بلقمة العيش هو السبب .. وأضفت أن عمرى مازال صغيراً .. ثم قلت بشجاعة : « إننى جاهل ! .. » لكنى لم أعلنها !

سألنى الرجل :

- فيم تفكر .. ياخالد أفندى ؟

قلت وأنا أشعر بأنه بنفاذ بصيرته سيعرف ماكنت مشغولا به لو أننى كذبت عليه ..

قلت :

-كنت أفكر فى أن سبب إهمالى لهذا التاريخ .. يرجع إلى صغر سنى ..

قال :

- إنك فى عمر ابنى مراد .. اتعرفه .. إنه صبى صانع أحذية .. لكنه خائب .. أردت أن أعلمه .. أدخلته مدرسة الصنايع .. لكنه هرب منها .. أعطيته الكتب ليقرأ .. فكان يبيعها للبقالين ليشترى بثمنها سجائر .. جيل أمره عجيب حقًّا يا ولدى ..

وصمت لحظة .. ثم أضاف :

- مصطفى كامل .. رحمه الله .. كان زعيما وهو فى مثل سنكم .. إنكم جيل خرع .. زرع هش .. مثل البوص الذى ينمو فى المستنقعات والأراضى البور ! ..
وضحك .. فتزايدت كرمشة وجهه .. وكشف شدقه المفتوح عن فراغ مكان

أضراسه وكثير من أسنانه .. وقال :

- لاتؤاخذنى ياخالد أفندى .. أنا مثل جدك ..

قلت :

- أنت معلم كبير أطال الله عمرك . .

قال باستنكار :

- أكثر من هذا .. لا يا ولدى .. لقد عشت مافيه الكفاية ..

وتنهد الرجل .. وغامت عيناه قليلا .. ويبدو أنه عاد إلى ذكريات بعيدة .. أصبح صوته أكثر خفوتاً ولكنه لا يخلو من صلابته وهو يقول :

- كان أبى محارباً بالسيف مع جيش عرابى .. وانضربوا فى التل الكبير .. وعاد بنصف سيفه .. كنت صغيراً .. ربما كنت طفلا يومها .. لكن أبى كان يحكى لى عن «هوجة» عرابى ..

وضحك .. ثم أضاف :

- أتعرف ماذا فعلت بنصف السيف ؟ .. اكتشفت أننى أحفظه فى خزانة حجرتى .. مع السيرة الهلالية وسيف بن زى يزن .. وحدث أن هاجم بعض الأشقياء دارى منذ عامين . . فأعطيت نصف السيف للحداد الذى صنع منه ترباساً ضخماً للباب . وضحك . .

وقال :

- وطال العمر بى .. لأرى القرية .. تبيع ضميرها لمن يملك شومة .. وليس سيفاً .. إننا نائمون ياولدى .. وعطية يسرق ويقتل اللصوص .. ثم يقتله أجبن رجال القرية .. والعنانى يبيع تراب أرضه ليردم البركة ويعتقك من رق امرأة وهوانم .. تصرف أمور معمل اللبن أحسن من عشرة رجال .. وابنى يهرب من

المدارس ويسرق كتبى وينتهى إلى صانع أحذية .. خيبه الله ..

وجذب نفساً من الجوزة .. ومضى يكمل حديثه .. فى عنف ظاهر :

– مصطفى كامل يا ولدى .. الذى انتهت حياته فى ميعة الصبا .. كان زعيم الحزب الوطنى سنة ١٩٠٧ .. وكان زعيما .. رحمه الله .. فقد قال :

– « مصر جنة الدنيا .. وإن شعباً يسكنها لهو أكرم الشعوب إذا أكرمها .. ولم يفرط فى حقها أو يتسامح مع غاصبيها . » وكانت كلماته : « بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى » هى هتافنا سنة ١٩١٩ .. فى كل القطر .. من قبلى لبحرى ..

وأضاف الرجل بمرارة .. بعد لحظة صمت :

– وتدعو لى بأن أعيش أكثر . لماذا ؟ .. لقد عاد ابنى الأكبر مخيمر هاربا من سيناء فى ١٩٦٧ .. كانت ثيابه ممزقة .. وأقدامه متورمة .. كان مذعوراً كالفأر .. أتعرف .. لقد طردته من دارى .. وأوصيت كل أهلى بألا يسير فى جنازتى إذا مت قبله !

وصمت الرجل طويلا ثم عاد صوته يرن فى أذنى .. «فى نصف نهار فقط انكسرنا .. إنكم جيل .. ضعيف .. هش .. ماذا جرى لكم .. إنكم مدللون .. معطوبون .. لاعقل لكم ! ..

وأحنيت رأسى .. وأنا أكمل حديثه هامساً :

– وأنا .. أكتب عن قضية بحماس .. دون أن أهتم بمعرفة جذورها وتاريخها .. ماهذا الكابوس المزعج الذى اكتشفت أننى أعيش فيه ، تذكرت فجأة أننى فكرت فى الانتحار مرة وتمنيت لو أن جثتى طفت وعبرت من كل الكبارى والأهوسة حتى تصل إلى قريتى دون أن يأكلها السمك ! ..

وطال صمته لحظة يتأمل أشياء كثيرة فى ذهنه . ثم قال :

– فى سنة ١٩ .. استمرت المظاهرات شهوراً طويلة .. هتفنا ضد الإنجليز وضد السلطان .. ضربنا وانضربنا .. ولم نخف .. والآن .. ماذا تفعلون بأنفسكم ماذا تفعلون ببلدكم ؟ !

انقطع حديثنا فجأة .. بتر بتراً .. عندما دخل عطوة شقيق هوانم .. بوجهه الممصوص كوجه الذئاب .. وعينيه الضيقتين ولاسته اللامعة ملفوفة على أذنيه حول طاقيته الصوف وأخرج يديه من جيبى البالطو الجبردين وجلس على مقعد بجوارنا متكئا على خيزرانته الطويلة وقال :

– ياعبد الكريم افندى .. لم يعد لى فى الأمر حيلة .. سأشكوها للمجلس الحسبى ..

قال الرجل :

– المجلس الحسبى . لماذا ياعطوة .. وهى بكامل عقلها .. ولم تبدد تركة والدها ..

قال عطوة بحقد ظاهر :

– هى قاصر . ولابد أن أدير معمل اللبن والجبن بنفسى .. سأعطيها حقها فيه وتتركه ..

قال الحاج عبد الكريم وهو يتفرس وجه عطوه بعينيه الحادتين :

– ياعطوة .. ارجع لعقلك ودعك من هذا الطريق الذى تدفعك إليه زوجتك عديلة بغاغة .

بهت عطوة . ودافع عن رجولته :

– أنا رجل البيت ياحاج ..

فخلع عبد الكريم طربوشه .. وبحذر وضعه مقلوباً على المنضدة ثم مد أصابعه

بداخله فأخرج مجموعة أوراق مطوية بعناية شديدة ليتسع لها الطربوش الذى اكتشفت أن الرجل جعل منه مكتبة .. وحافظة لأوراقه ، ثم أخرج ورقة وفردها .. وقال لعطوة :

- عديلة جاءتنى الظهر وأعطتنى ريالا وكتبت لها هذه العريضة .. ضد هوانم .. لكننى لن أرسلها للمجلس الحسبى .. أتعرف لماذا ياعطوة ..

صمت الحاج عبد الكريم لحظة .. ثم طلب جوزة لنفسه وشاياً لى وقال :

- لأن عديلة تكيد لهوانم .. لأنها رفضت أن تتزوج من نسيبك على بغاغة .. قال عطوة مدافعاً :

-كذب .. كذب .. وصمت .

قال عبد الكريم :

- لأ ياعطوة . البلد كلها تعرف الحكاية .. عديلة بغاغة تريد أن يتزوج شقيقها على بغاغة من هوانم لتضمن لك .. ولها طبعاً .. معمل الجبن والقيراطين اللذين ورثتها هوانم عن أمها .. هذه هى القصة كلها ..

وصاح عطوة :

- هى دفعت لك كثيراً ياحاج ؟ !

غضب عبد الكريم .. وشخط فتطاير الرذاذ من فمه :

أنا لا أبيع ذمتى ياكلب ..

تكهرب جو المقهى .. وأقبل الجالسون على عبد الكريم يهدئونه ولام بعضهم عطوة .. وأصر البعض على أن يقبل عطوة رأس عبد الكريم فهو مثل والده .. رفض الرجل أن يقبل عطوة رأسه .. لكنه أنهى الموقف بحزم .. بقوله :

- ياعطوة .. ارجع عن الطريق الذى تسير فيه .. فعديلة بغاغة .. وشقيقها على

بغاغة .. سيجعلانك مضحكة للبلد كلها ..

نهض عطوة .. فقال له الحاج عبد الكريم :

- دع هوانم فى حالها ..

خرج عطوة يجر غضبه وخزيه .. من المقهى .. فابتلعه الظلام .. وعاد المفتى إلى حالته الهادئة بعد لحظة قصيرة ..

وقال :

- هوانم بألف رجل ياخالد أفندى ..

قلت :

- سمعت أن عطية كان قد طلب يدها قبل أن يقتل بأسبوع ..

قال :

- ليته ما فعل ! ..

نظرت إليه متسائلا ..

قال :

-كل من يقف معها .. يقتل يا ولدى .. أو يحرق زرعه ..

اتسعت عيناى ..

قلت :

- لكن .. لماذا اختاروا أرضنا نحن .

قال :

- أرض العنانى .. تبعد الشبهة عن كثيرين يا ولدى .

قلت : لغز جديد ..

قال الرجل وهو يضع طربوشه على رأسه .. وينهض واقفاً ..

- فى يوم ما .. ستعرف ان الألغاز التى تطمس الحقيقة فى البلد .. من صنعنا نحن .. لأننا نخاف لأننا جبناء ..

ثم خرج بعد أن ترك ريالا لأبى المجد صاحب المقهى ..

أصابنى الدوار .. وجدتنى مرة أخرى أسير تساؤلات محيرة .. والظلام يبدو أمامى كالخيوط السوداء .. المتداخلة مع خيوط خضراء رفيعة .. غامقة .. متداخلة مع خيوط أخرى حمراء .. والخيوط كلها تتلاشى عند الأفق البعيد .. خلف دور القرية الصامتة .. النائمة .. وأسرعت إلى الدار .

الفصل السادس

امتلأت الأرض بالماء .. حتى جسورها .. وقام أبى «بتلويطها» بزحافة من الخشب تجرها الماشية ويقف عليها بثقله ليقود البهائم بينما جلست أنا على طرف وجلست أختى على طرف آخر .. وابتلت ثيابى وملأ الطين وجهى وساقى وذراعى .. لكننى كنت سعيداً .. كنت أشعر بأن المياه التى اختلطت بالطين على جسمى .. تذيب أشياء كثيرة بداخلى .. وتخرجنى من أدغال كثيفة رطبة وقذرة .. إلى أرض مليئة بالنور .. تفرشها الشمس .. ويحلق فيها أبو قردان الذى يغوص بساقيه الطويلتين فى طين الأرض .

كنت أشعر بمنقار أبو قردان ينغرس فى جسمى أنا وهو يلتقط الأشياء الساقطة العفنة .

ماتت ذكريات خرقاء فى وجدانى . لم أعد قادراً على استحضار ذكرياتى مع فتاة الجامعة التى تركتنى لعجزى عن الاقتران بها .. ولكننى عجزت عن إبعاد شبح المرأة التى قيدتنى بشيكات الثلثمائة جنيه .. كنت أنساها .. وأنسى أننى كنت زوجاً مقيداً لها من عنقى .. لكننى فى اللحظة التالية أذكرها .. فبسببها .. أنا فى القرية .. وبسببها أشهد أبى يبذل جهوداً خارقة لإعادة الخصوبة إلى الأرض التى تسببت أنا فى بوارها ! ..

اهتز اللوح الخشبى فجأة عندما لسع أبى الجاموسة بالفرقلة .. فاندفعت

مسرعة .. وسقطت على ظهرى فى الطين وضحكت أختى هدى .. وأسرعت تدارى وجهها .. وصاح أبى :

- أجمد يارجل . ماذا حدث لك ؟

استدار بعنقه فرآنى أنهض من الطين .. فضحك وقهقهت أختى هدى .. وأنا أحاول اللحاق بالزحافة التى تسوى الأرض .. فأكاد أسقط وأثير بقدمى رذاذاكثيراً من الماء والطين .. وأضحك من أعماقى ..

أخيراً عدت إلى مكانى على طرف الزحافة وبذلت جهداً كبيراً لأثبت فى موضعى .. كان ذيل الجاموسة يصفعنى .. ولكننى لم أكن أبالى ..

فجأة ظهر بركات على الجسر . . قال :

- عنك ياعم عنانى ..

خاض بركات الطين بأقدام ثابتة .. كان فى مثل عمرى يرتدى طاقيته الصوف .. وسرواله الطويل إلى ماتحت ركبته .. رفعه بثنية حول وسطه من التكة الصوف ذات الشراريب الصغيرة .. المجدولة بعناية .. وخلع صديريه وأعطاه لأختى هدى .. وركب الزحافة وأمسك بزمام البهائم ومضى «يلوط» الأرض ..

انتقل أبى إلى طرف الزحافة مكانى .. وقال لى :

- عليك أن تعلى السدود فى القنوات حول الأرض حتى لاتتسرب المياه إلى أرض عمك طه أبو جلهوم وتفسد زراعته .

كان عم طه أبوجلهوم يزرع قطناً .. لكن أرضه أعلى من أرضنا .. ولن تصل إليها مياهنا .. لكن أختى هدى شرحت لى الأمر وهى تساعدنى .. قالت :

- الماء ينشع فى الأرض .. ويضرب بطنها .. والقطن لايحب الأرض الرطبة .. يموت أو تفقس فيه الدودة .

ابتسمت لها . وقلت :

- أنت خبيرة فى الزراعة ياهدى .. لكن .. قولى لى .. من هو بركات ؟

قالت :

- ابن عمك طه أبوجلهوم .

ضحكت وأنا أحمل جالوص الطين وأعلى به سد القناة .. وقلت :

- قديمة .. أنا أعرف ذلك .

سكتت .. لكن وجهها احمرّ .. جرت به الدماء .. رأيت ذلك من خلال بقع الطين على خديها .. واكتشفت أن أختى جميلة .. حلوة .. عروس .. أنفها رائع .. عيناها عسليتان .. بحيرتان من العسل .. وشعرها الكستنائى فى ضفيرتين يصل إلى أسفل ظهرها ..

قلت :

حظه من السما .. بركات

قالت :

- جاءه طلب من الجهادية .

قلت :

- الجهادية .

قالت

- أصله رديف . كان فى الجيش . حارب فى اليمن .. ورجع واشترى أبوه فداناً جديداً ..

وأضافت :

- وطلبوه بعد هزيمة يونية مرتين ! ..

قلت :

ليتدرب على السلاح الجديد .. ويعود .. تحت الطلب ..

قالت :

- فى الفجر كان مع أبى يدير الساقية .. وقال له إنه لن يعود هذه المرة بسرعة .. لأنه ذاهب إلى السويس ..

قلت :

- أهو .. روى معكم الأرض .. فى الفجر .

قالت :

- رفض أبى أن نوقظك . قال دعوه يستريح .. ثم سألتنى : السويس بعيد ؟ ! ..

خجلت من نفسى . لقد نمت مجهداً بعد لقائى مع عبد الكريم .. عذبتنى أفكارى وتركتنى أنام حتى انتصف النهار ..

قالت :

- هوانم قالت إنك ابن حلال ..

نظرت إليها .. أضافت :

-كانت تشترى اللبن منى اليوم فى سوق الجامع .. وقالت إنها ستحضر لتأخذه من الدار كل يوم .. كما كانت تفعل قبل أن تتشاجر معها أمى ..

قلت :

- تشاجرت مع أمى ..

قالت وهى تضع بعض القش فى السد الصغير لأضع فوقه جالوص الطين :

- أبو شهدة .. ينافس هوانم فى جمع اللبن .. وهو يشترى لمعمل أبو العيش

وهوانم زعلت من أمى لأنها باعت لأبى شهدة .. لكن أمى قالت لها إنه يدفع تعريفة زيادة ..

وانتهينا من السد .. وانتقلنا إلى سد آخر فى القناة الجنوبية لأرضنا .. كانت هذه القناة تفصل بين أرضنا وأرض العمدة .. التى تمتد كشريحة واحدة .. بطول عشرة أفدنة وعرض خمسة .. بحذاء شاطئ أم شوشة ..

قلت :

- أرض العمدة .. جيدة ياهدى ..

قالت :

- ورثها عن ابيه .. وسترثها زوجته وحدها ..

قلت :

- لم ينجب أولاداً بعد ..

قالت :

- ابن أخيه مثل أولاده .. لكنه مهياص .. بنى العام الماضى داراً لنبوية ..

قلت :

- نبوية .. من ..

قالت :

- نبوية زوجة جاد الله الذى مات محروقاً فى دوار العمدة من سنتين .. كان يعمل كلافاً لبهائم العمدة .. لكن على بغاغة فضح الدنيا فى البلد ..

ومضت أختى تحكى لى القصة .. التى اكتملت تفاصيلها لدى فيما بعد من الناس الآخرين فى مقهى أبو المجد ، إن نبوية هذه امرأة لعوب .. لها ثلاثة أولاد .. لكنها كانت فى عز شبابها . وزوجها جاد الله .. لاحظ أن «مجدى» ابن شقيق

العمدة يعاملها برقة ويهديها من حين لآخر قطعة قماش لتعملها ثوباً .. وكان على بغاغة .. مضحك البلد . يتندر بالحادثة على المقاهى .. وحدث أن ضرب جاد الله زوجته نبوية وأغضبها لكنه ردها للدار من أجل الأطفال الثلاثة .. وذات يوم رجع جاد الله -كما يحكى على بغاغة - من دوار العمدة قرب الفجر لأنه رغب فى نبوية وأراد أن يستحم ويغير ثيابه .. بعد أن لوثتها مهرة العمدة عندما كان يجامعها هكذا يصر على بغاغة ويحكى ويقسم برحمة أبيه وبالشيخ أبو حلاوة على صدق كلامه ، ومع ذلك لم يصدقه أحد .

المهم أن جاد الله .. عاد إلى داره قرب الفجر .. وفتح سقاطة الباب ودخل إلى القاعة التى تنام فيها زوجته .. لكنه وجد مجدى هناك مع نبوية .. عرايا كما ولدتهما أمها .. وهرب مجدى فى الظلام .. لكن جاد الله وجد محترقا فى الدوار بعد ذلك بأيام قليلة .. وقيد الحادث قضاء وقدراً عندما كان يشوى بعض كيزان الذرة .. فى جرن الدوار ..

وبنى مجدى داراً جديدة على مشارف القرية لنبوية .. ويحكى أنه يذهب إليها أحياناً مع عمه .. نفسه ..

* * *

زاملنا بركات فى العمل .. فى اليوم التالى .. وكانت معه أخته بدرية ووالده طه أبوجلهوم .. وكان أبى قد دفع ثمن شتلات الأرز وأجر عربة من عربات أبوحبيب تاجر الخيول وصاحب عربات الكارو التى تعمل فى النقل داخل وخارج قريتنا .. ونقلت عربة أبو حبيب شتلات الأرز من أرض العزبة إلى رأس أرضنا ..

وقفت هدى وبدرية تقذفان حزم شتلات الأرز الأخضر الذى تثقله كتل الطين عند الجذور .. تقذفانها لى ولبركات عبر القناة المليئة بالماء . . لنلتقطه ونكدسه فى

أطشات الغسيل النحاسية .. طشتنا وطشت عائلة بركات اللذين امتلآ بشتلات الأرز ومن ثم انحنى كل منا ودفع الطشت أمامه .. فوق الماء والطين .. كانت المياه تعوّم الطشت أمامي .. لكنه لثقله كان يغوص إلى حد ما فى الطين .. فأغرز قدمى فى الطين وأستجمع كل قوتى فى ذراعى وقبضتى الممسكتين بحافة الطشت وأدفعه .. وأنا منحنى الظهر ..

لكن بركات كان يسبقنى عادة .. لأنه أمهر منى فى عمله .. وأكثر قوة وشجاعة .. كان كالفرسان الشبان .. وكانت قدماه تقذفان برشاش الطين إلى وجهى وعينى !

لحقت به عند الجانب الآخر من الأرض .. كان يفرغ شتلات الأرز بنظام .. يرصها صفوفاً .. متباعدة ليسهل حل كل ربطة منها وزراعته ..

وقفت أفعل مثله .. بينما أبى وعم طه أبوجلهوم مع نفرين وبنتين استأجرهم أبى .. يقومون بغرس الشتلات فى الطين .. بنظام هندسى بديع .. حول الأرض أمامهم إلى اللون الأخضر الذى يكسو الطين ببطء .. ببطء ..

قال لى بركات وهو يدفع الطشتين أمامنا على شكل مقطورة .. بعد أن وضع طشته خلف طشتى .. ودفعها معاً .. وأنا أسير بجواره .. لأريح ظهرى قليلا بعد أن كاد ينكسر ..

قال لى مكملا حديثه عن ذكرياته فى اليمن :

-كنا نجلس فى الجبل خائفين .. كنا نعطش .. فينزل بعضنا من الجبل بحثاً عن عين ماء .. ليملأوا الجراكن .. وعادة كان الزملاء يعودون بجراكن الماء .. لكن بعد أن يفقدوا أحدهم .. أو يجرحوا فى ظهورهم !

قلت :

-كانوا يغدرون بكم ؟ !

قال :

- بعض القبائل كانت تكرهنا .. كانوا يهاجموننا بالخناجر من الخلف .

قلت : دعاية الاستعمار .. وذهب الملكيين .. أليس كذلك .

قال بركات وهو يوقف الطشتين بجوار جسر القناة لتملأهما هدى وبدرية :

كنا أول من ذهب إليهم .. فلم نكن نعرفهم ونجهل أرضهم وجبالهم .. وحدثت مآزق شديدة ..

وضحك بركات .. وهرش جبهته .. واكتشفت لأول مرة أن بجبينه آثار رصاصة ..

قلت :

-كدت تموت .

قال : كانت أيام حلوة .. صدقني ياخالد .. هزني صوته وهو يناديني باسمى .. دون أن يضيف إليه «أفندى» كما تعود أن يقول دائماً .. أحببته أكثر .. وعرفت قيمة أن يطلب رجل له خلق بركات يد أختي هدى .. لاحظت أنها ترمقه بإعجاب شديد . لكنني دهشت من نظرات بدرية إليّ .. عادت إلى ذهني إحدى عادات قريتي . كثير من الزيجات بها تتم بالتبادل .

إذا تزوج بركات من أختي .. فلا بد أن أتزوج أنا من أخته .. زقاقنا يشهد كل يوم حكايات بسبب ذلك . جارنا «السعيد» الخفير النظامى تزوج من بنت العياضى ، وزوج أخته من ابن العياضى .. وابن العياضى يضرب أخت جارنا كل يوم فتغضب وتعود إلى دارها .. وجارنا لابد أن يرسل زوجته إلى بيتها حتى يصالح العياضى أخته .. تبادل الزيجات وتبادل الخناقات وتبادل المصالحات .. حياة

متعبة .. لكنها لاتخلو من معنى إنسانى ، فقد حدث أن جارنا لم يعد يغضب زوجته أو يرسلها إلى دار أهلها كلما أرسلوا إليه أخته .. تدريجيًّا كانت أخته تتشاجر مع زوجته لكنهما فى النهاية تتحابان ويبدو أنهما ملتا لعبة التبادل هذه فى التغاضب وانصلحت الأمور .. ولم تعد أى منهما تغضب من زوجها ..

أعدت النظر فى موقفى .. لن أرفض طلب بركات الزواج من أختى هدى .. فهو يحبها وهى تقدره .. كلنا نعرف ذلك .. ثم إن والده طلب يدها من أبى .. ولابد أن يعقد القران قبل سفره إلى الجبهة فى السويس .. لكن .. ليس معنى ذلك أن أتزوج بدرية ..

لكن .. لم لا ؟ .. إنها جميلة .. يفوح جسمها برائحة الخصوبة .. مثل شجرة جوافة رائحة الثمار تفوح منها على مسافة أمتار .. بدريّة .. بيضاء .. ملوحة بالشمس .. مثل تفاحة على وشك النضوج .. شعرها يميل إلى اللون الذهبى .. عيناها سوداوان .. جدها شامى .. هكذا حكت لى أمى .. جد جد جد جد أمها كان من الشام يتاجر فى الأقمشة الحريرية ثم أفلس ومات .. بعد أن اشترى عشرة افدنة فى بلدنا . لكن الخواجة مترى تاجر الذهب اشترى نصف التركة من الورثة .. وبقيت خمسة أفدنة لعم طه أبو جلهوم .. زادها فداناً سادساً بعد عودة ابنه بركات من اليمن قبل هزيمة يونية بستة شهور ..

شدتنى نظرات بدرية .. فى السادسة عشرة من عمرها أصغر من هدى بعام تقريباً .. لكنها أكثر أنوثة منها .. قال بركات :

– الطشت امتلأ .. هيا بنا .. قبل أن تحمى الشمس لننقل كل الشتلات ..

اكتشفت أننى كنت مشغولا بأمر بدرية .. فخجلت .. وقلت لنفسى :

– أهذا وقته .. ؟ !

انحنيت ودفعت الطشت المحمل بشتل الأرز أمامى .. وقدماى تثيران رذاذاً من الماء المخلوط بالطين ، وبركات يحكى لى عن ذكرياته فى أسواق اليمن :

- فى مرة قلت أجرب مضغ القات . ونمت ليلتها مخدراً .. وصحوت على طابور ذنب .. جريت فى الجبل أمام المعسكر حتّى انقطعت أنفاسى .

وضحك ..

سألته : أنت قاتلت كجندى .. فى ظروف صعبة .. فهل تقول لى .. كيف هزمنا .. فى نصف نهار .. فى سيناء ؟

قال بركات .. فى حزن :

- لقد قتل هناك ثلاثة من زملائى .. من هنا .. الدسوقى ابن الشيخ ابراهيم قارئ القرآن فى دورنا كل صباح .. وابن الخضرى الفكهانى وأحمد بن عم المرسى فراش المدرسة .. الدسوقى كان مدرساً فى المدرسة .. كان لا يكف عن الضحك .. وأحمد كان ضابطاً .. خدمنى مرات .. وأعطانى تصاريح بالأجازات .. وابن الفكهانى كان يحب فتاة يمنية لكنهم ماتوا فى سيناء .. دون أن ..

وصمت .. حتّى أفرغ الشتل من الطشت .. وجاء يساعدنى وهو ينصت إلى غناء مكتوم من إحدى البنتين اللتين تعملان مع أبى وعم طه فى شتل الأرز .. :

« يارب هات للولاية يوم ويرتاحوا ».

« والله الولاية غلابة ماحيرتاحو ».

قال بركات وأنا أدفع الطشتين أمامى كالمقطورة .. :

- لا أعرف لماذا هزمنا .. كتبوا كثيراً . أنت واحد من الذين كتبوا فى الصحف .. لكن .. الحقيقة هى أن العساكر لم تحارب . لو حاربنا فعلا .. لكان الحال غير الحال .. الدنيا كلها تعرف ذلك ..

قلت :

– ستحارب على الجبهة يابركات ذات يوم .. وأرجو أن يكون الحال غير الحال فى المرة القادمة ! ..

قال :

– لايهم أن أموت .. فقد مات عشرة آلاف واحد مثلى .. المهم أن نريح أنفسنا .. وينزاح الكابوس . وأضاف :

– إذا كانت هوانم لا تسكت على ثأرها .. وهى بنت ..

قلت :

– ثأرها .. ؟

قال وهو يوقف طشته لتملأه هدى بالشتل ..

– قبل أن أسافر إلى اليمن .. بعد دخولى الجيش بسنة .. قتلوا أباها الزناتى كان رجلا طيباً لا أعداء له .. لكنه وجد مخنوقا فى معمل اللبن ذات ليلة .. وقالت عديلة بغاغة إن عطية هو الذى قتله .. لكن البوليس لم يجد دليلا يدين عطية .. وشهدت البلد أنهما كانا صديقين .. وأن عطية عمره ما قتل أحدا أو سرق من القرية ..

انشغلت فى ملء الطشت بالشتل الذى تناوله لى بدرية . .

وعندما دفعت الطشت أمامى فوق الطين والماء .. فى اتجاه الشتيلة .. قال بركات :

– والعجيب .. أن عطية قتل بعد أن طلب يد هوانم .. كان متزوجاً من ثلاث قبل ذلك .. يقولون إنه تزوج من الشرقية .. ومن الصعيد .. ومن القاهرة .. وكان يعيش وحيداً فى القرية ..

قلت :

- هل قتلته هوانم ؟ ..

قال :

- لم يكن بينه وبينها ثأر .

نظرت إليه .. وأنا منحن على الطشت أدفعه أمامى ببطء ..

وقلت :

- قلت لى إنها لم تنس ثأرها .

قال :

- مع عديلة بغاغة .

سألته :

- عديلة بغاغة .. ؟ هى إذن التى قتلت حماها . .

قال :

- ليس حماها .

أوقفت الطشت .. ووقفت مزروعاً فى الطين .. والدهشة تطل من نظراتى ..

توقف بركات . وتفل فى يديه .. وفركها .. وقال :

- عطوة ليس شقيقاً لهوانم .

سألت :

- لماذا يطالب بمعمل اللبن والجبن إذن .. ويتشاجر مع هوانم .. لا أفهم شيئاً يا بركات . ابتسم وانحنى على طشته ودفعه أمامه .. انحنيت ودفعت طشتى الثقيل محاولا اللحاق ببركات.. وسمعته يقول :

- المسألة واضحة كالشمس يا أخى . أم هوانم ماتت وتزوج والدها من أم

عطوة .. كانت أرملة بعد وفاة زوجها .. وقالوا إن أم عطوة طمعت فى مال أبو هوانم .. لكنها ماتت فى الحجاز وهى تحج بعد زواجها بعام واحد..

قلت : معنى هذا أن عطوة لايرث فى تركة الزناتى .

قال بركات :

- لكن عديلة بغاغة .. تريده أن يرث بالقوة ..

ودفع طشته أمامه .. وفعلت مثله .. وأنا فى دوامة من الأفكار المتناقضة .. وأحاول جاهداً أن أربط بينهما .. لكن أمى وصلت على رأس الأرض .. رأيتها واقفة تحت شجرة الصفصاف وعلى رأسها صينية واسعة مغطاة ببشكير حمّام .. عرفت أنها استعارته من دار عم طه أبو جلهوم ..

وقال أبى :

- نتغدى أولا يا جماعة ..

فأسرعت إلى شجرة الصفصاف وعيناى تتابعان خيالى المتكسر فوق المياه التى كانت بلون طين الأرض .. مسحت قدمى ويدى فى شعر شجرة الصفصاف المدلاة فى المسقى .. وجلست آكل .. كنت أشعر بالجوع .

الفصل السابع

على ضوء اللمبة « نمرة ١٠ » حاولت أن أقرأ « جريدة الحرية » كان يسرى بائع الصحف الطيب يحضرها لى كل صباح .. قرأت المانشتات الحمراء .. والسوداء .. لا شىء غير شروح سخيفة لشعار إزالة آثار العدوان بالصبر والصمت ! . .

تركت الجريدة جانباً .. وشعرت بالرغبة فى الخروج .. قلت : أذهب للمقهى ! ..

قالت أمى :

– الدنيا برد عليك .. وأنت متعب من العمل طول النهار .

– لن أتأخر .

كنت أريد أن أجلس مرة أخرى مع عبد الكريم .. كنت قد أحببت المفتى .. شخصيته وحديثه .. وآراءه .. خرجت إلى الزقاق . . رأيت الظلمة تغطى كل شىء .. تذكرت أننى فكرت فى كتابة مقال عن ضرورة إنارة القرية .. لكننى أرجأت ذلك إلى حين ..

وفى الطريق البحرى .. هو بحرى البلد .. سموه الطريق البحرى .. كان الفانوس يحتضر بعد أن نفد الجاز منه .. كاد الظلام يطمس كل شىء حولى .. وغير بعيد كان ضوء كلوب قهوة أبو المجد ينفذ من الباب الضيق للمقهى ليضىء مستطيلاً صغيراً أمامها ..

منيت نفسى بحديث طويل مع المفتى .. عن تاريخنا الطويل .. لكننى أفقت على صوت ليس غريبا علىّ ينادينى :

– خالد افندى .. خالد افندى .

توقفت . تلفت حولى . كانت امرأة تقف بجوار جنينة دار العمدة .. فى الظلام .. لم أتبين ملامحها ..

اقتربت منها .. بحذر .. ملأت أنفى رائحة أشجار الجوافة والليمون ..

وبجوار سور الحديقة المتهالك .. رأيت هوانم تقف هناك .. كانت عيناها تلمعان فى الظلام .. كنجوم الليل الصغيرة البعيدة ..

صافحتها .. احتفظت بيدى فى راحتها ..

قالت :

– أوحشتنى .

ارتجفت . كانت ليلى .. بنت الجامعة .. تقول لى ذلك لكنها كانت تجيد إلقاء حروف الكلمة ذاتها لكن بثقة تهزنى .. أما هوانم فقد قالتها بشىء من الأنوثة .

قلت :

– وأنت أيضاً .. أوحشتنى ..

ابتسمت .. رأيت أسنانها تلمع فى الظلام ..

وقالت :

– لماذا لم تأت للمعمل . «كانت ليلى تستقبلنى فى بيتها لكنها قالتها بوضوح لن أكون عشيقة لك .. » كانت أنثى وجادة .. وتعرف ماتريده .. كانت مزيجاً مذهلا ..

قلت :

- معمل اللبن ؟

قالت :

- وماذا فى ذلك .. كل الناس تأتى .. الشبان يزورون المعمل كل ليلة .. والمدرسون بالمدرسة أيضاً ..

قلت :

- غريبة .

قالت ببساطة :

- بعضهم أشار على بشراء عيش فينو . لأعمل لهم سندويتشات بالزبدة والقشدة .. والجبن .. وأبيع لهم أيضاً أكواب اللبن الدافئ وعندى أسطى شاطر كان يعمل من قبل فى البندر ..

ضحكت .. وقلت :

- فكرة عظيمة فعلا .

ازددت إعجابا بهوانم .. لكن صمتها ووشوشة أشجار الجزورينا وحفيف أوراق الجوافة والليمون ورائحتها وعيون هوانم .. والليل أثارت فى خاطرى أشياء مثيرة .. تساءلت فى نفسى :

- لماذا اختارت هذا الركن المظلم .. وجنينة العمدة .. ينام خفيرها عادة .. فلا أحد تسول له نفسه أن يسرق من حديقة العمدة .. و ..

قالت :

-كنت سأرسل لك فى الدار .

قلت :

- خيراً

قالت ببساطة : لتزورنا فى المعمل .

صمتت لحظة .. ثم قالت :

- إنهم يتحدثون عنك كثيراً ..

دهشت وسألتها :

- من ؟ ..

قالت وهى تشد طرف طرحتها بدلال على رأسها :

- الشبان .. الذين يذهبون إلى مدرسة المركز .. قالوا للمدرسين الأغراب إنهم يقرأون ماتكتبه فى الجريدة ..

شعرت بالسعادة .. لكن إحساسى تجاه كل مايحدث الآن كان غامضاً .. كان ثمة شىء هام هو الذى دفع هوانم إلى أن تفعل مافعلته الآن .. فى هذا الظلام .. قلت :

- أخشى أن يرانا أحد ..

ضحكت ثم قالت :

- هل نفعل شيئا خارجاً ! ..

قلت :

- إننا بجوار حديقة العمدة .. و ..

قالت :

- إنه طريقى إلى معمل اللبن .. وضحكت .

أشعلت سيجارة .. رحت أدخنها ببطء .. وأنا أفكر بسرعة فى كل ماسمعته من أحمد عبد الكريم .. أو المفتى . ومن بركات .. سألتها :

- هل هناك ثأر بينك وبين أحد فى القرية ؟

قالت هوانم وحنكة الأيام فى صوتها :

– ثأر .. ؟

ثم ضحكت وقالت :

يظهر أنك أصبحت تفهم مايحدث فى البلد .

قلت :

– ليس بعد .. لكن حدثينى عن هذا الثأر .

قالت : إنها حكاية طويلة .. لكن المهم أن آخذ بثأرى أولا ..

قلت بدهشة :

– إذن .. أنت لم تأخذى به بعد .

قالت :

– وهل قال لك أحد إننى أخذت بثأرى .. إننا لسنا فى الصعيد يا خالد أفندى ..

قلت :

– هذا صحيح .. فبيننا وبين بحيرة المنزلة مائة كيلو متر فقط .. لكن .. مع من ثأرك ياهوانم ..

قالت :

– ليس هذا وقته .. المهم متى تزورنا فى المعمل .

قلت :

– أهذا ضرورى .. إننى مشغول مع أبى بزراعة الأرز ..

قالت :

– قرأت مقالاتك مرة أو مرتين فى الجريدة .. لكن الشبان قالوا إنك تكتب

عن الفلاحين .. وكانوا يتحدثون عنك بإعجاب شديد ..

ابتسمت .. وقلت :

– عندما عدت إلى قريتى .. اكتشفت أننى لا أكتب إلا عن فلاحى البلد منذ عشر سنوات .. والأمر يختلف الآن .. المهم .. أننى فى حاجة إلى وقت طويل لكى أفهمكم .. هنا غموض شديد .. ألغاز .. ألغاز .. كما قال المفتى ..

قالت :

– المفتى .. الناس كلهم يسمونه المفتى .. لكن عبد الكريم أكبر من ذلك .

قلت لها :

– هو يحبك جداً .. و ...

تذكرت فجأة .. ماقاله المفتى لى أمس فى المقهى ..

قال : «إن من يقترب من هوانم .. تصيبه اللعنة .. »

نظرت إلى وجهها .. لايخلو من براءة برغم أنوثته الطاغية .. لكن أى لعنة حقًّا تسببها هوانم ..

قلت لها :

– عرفت أن عطية طلب يدك قبل أن ..

ضحكت .. وقالت مقاطعة :

– أنا التى أخبرتك بذلك .. أنسيت ياخالد افندى .. ثم صمتت لحظة .. ونظرت حولها .. ثم قالت :

– لم لاتأتى الليلة إلى المعمل ؟

– الليلة ؟ ..

– سأنتظرك ..

نظرت إلى عينيها .. ثم إلى شفتيها ومرة أخرى وجدتنى أقارن بينها وبين « ليلى » كانت تفوق صديقتى كثيراً .. ولاتقارن بالشمطاء التى أمسكتنى من عنقى بالشيكات فى العام الماضى .

أفقت على صوتها :

- سأحكى لك عن كل شىء .. فهل تأتى ..

سألتها عن مقتل عطية .

قالت : وفى أرضكم .. أرض العنانى بالذات ..

قلت :

- آتى معك الآن ..

قالت :

- بعد ساعة .. سأنتظرك .. فالشبان هناك الآن يأكلون السندوتشات ويشربون أكواب اللبن .. بعد أن ينصرفوا .. سأنتظرك .

ثم استدارت ومضت مبتعدة .. وسرعان مااختفت مع انحناءة سور حديقة العمدة . وجدتنى وحدى .. ورائحة الجوافة والليمون تملأ أنفى .. ثم فرقع صوت أرعبنى وفرقع صوت آخر .. وصرخت هوانم .. كان صوتها .. واكتشفت أن رصاصتين أطلقتا من بين أشجار الحديقة .. ومزقتا صمت الليل وانفجر نباح الكلاب وفتحت الأبواب .. وسمعت أقدام بعض الناس تهرول .. وانطلقت أعدو مع الآخرين .. وأنا فى ذهول .. وأمام هوانم .. المنطرحة على وجهها فوق التراب .. بجوار سور الحديقة .. توقفت .. وتوقف الناس .. بعضهم أخذ يقلبها على ظهرها ليرى إذا كانت قد ماتت أم لا .. وخشيت أن تمتد يدى إليها حتى لايعرف أحد أننا كنا معاً .. أنا وهى قبل لحظات ..

وارتفع صوت مهرج .. به طابع الخيال .. يقول :

- «هه .. هه .. كانت هوانم مع مجدى ابن أخو العمدة فى الجنينة .. أنا شفتّهم بعينى .. »

وانطلق على بغاغة يعلن كذبته .. لكن أحدهم أسرع خلفه وصفعه على وجهه . فبدأ يعوى كالكلب الجريح ..

- «أنا شفتّها .. أنا شفتّهم .. كان نايم عليها زى الفحل الجاموس .. أنا شفتّهم .. ».

ومضى يعوى فى أزقة القرية ..

وعلق رجل لا أعرفه بصوت خافت :

- عملتّها بنت بغاغة .

استدرت إليه .. فصمت . لم يكمل حديثه عن عديلة بنت بغاغة .. زوجة عطوة .. وانشغلت بعد ذلك فى الحادث ..

أقبل المفتّى قبل أن يحضر البوليس نظر إلى وجه هوانم .. فتح عينيها بأصبعيه .. ثم انحنى وضع جانب رأسه على صدرها .. كان يتسمع دقات قلبها .. ثم نهض واقفا وقال :

- الحمد لله .. لم تمت .

لكن وصول الإسعاف من المركز استغرق وقتاً عشته على أعصابى ..

وقال المفتّى .. وهو يقلب عينيه فى وجوه الحاضرين :

- الجبن يجعلهم يأكلون بعضهم فى الظلام .

قلت :

- فى رأيك .. من الذى حاول أن يقتل هوانم الليلة ؟

قال :

- المهم أنها لم تقتل ، ستعيش هوانم ياخالد أفندى .. لتحكى لك بنفسها .. لابد أنها رأته .. قبل أن يضربها ..

قلت له محاولا إخفاء لقائى بها منذ لحظات منعاً للشبهة :

- على بغاغة قال إن مجدى ابن شقيق العمدة ..

ضحك المفتى وقال :

- على بغاغة .. وعيلة بغاغة .. كله بغاغة .

ثم ضحك فى مرارة وقال :

- مجدى كان فى مقهى أبو المجد .. ورأيته بنفسى .

صمت لحظة .. ثم أضاف :

- انظر ياخالد أفندى . ألا ترى هذا المشهد العجيب .

نظرت إلى حيث أشار . فرأيت عطوة .. وعديلة يبكيان بجانب هوانم التى حملها الناس وأراحوا جسدها الجريح على بعض القش .. وكانت عديلة تمسك بلمبة صاروخ .. أضاء نورها وجهها الذى تسيل فوقه الدموع .

همست :

- أتشك فى عطوة وعديلة ..

قال المفتى :

- هذه مهمة البوليس ياخالد أفندى ..

ثم تركنى ومضى .. والظلام من حولى يتحول إلى نسيج من الخيوط السوداء التى تتخللها خيوط خضراء دقيقة غامقة .. وأخرى حمراء باهتة وفاقعة .. ورائحة الجوافة والليمون تزكم أنفى .. وأشعلت سيجارة بحثاً عن بعض العزاء .

الفصل الثامن

بعد أسبوعين .. شفيت هوانم وعادت إلى معملها .. لكنها ظلت قابعة به .. فقد كانت ساقها تؤلمها من أثر الجراحة التى أجريت لاستخراج الرصاصة منه . فاستأجرت عاملا لجمع الألبان لها كل صباح ..

وفى نفس الوقت .. رفض المقاول بناء المدرسة الجديدة على أرض البركة بعد أن أثبت المهندس أنها أرض رخوة لاتحتمل البناء الآن .. وقال البعض إن الحكومة ستختار قطعة أرض من غيط العمدة ..

وأشاع على بغاغة فى القرية أن العمدة رفض طلب الحكومة مع أنها عرضت عليه مالا كثيراً :

وفى اليوم التالى .. انطلقت زغرودة طويلة فى دارنا تعلن أن عقد قران أختى هدى وبركات سيتم يوم الخميس التالى . .

وبعد ذلك بيومين .. كانت النيابة تحفظ قضية محاولة قتل هوانم بعد أن أصرت على أنها لاتتهم أحداً .. ولم يعثر البوليس على دليل قاطع يدين أحداً بعينه ..

ولكننا فوجئنا فى الصباح عندما سرحت إلى الغيط مع أبى .. بأن الأرز غارق فى الماء حتى شوشته .. وذعر أبى وصاح فى عواء :

– «الزرع ضاع يا خالد . . » .

كانت المياه كالمستنقع الهائل .. يبتلع زرعنا .. وأسرعت مع أبى نفتح كل

السدود فى القنوات المجاورة لتصرف المياه إلى المصرف العمومى ..

ومضت دقائق ثقيلة .. وأنا افتح فى السدود .. وأسلك القنوات فى أراضى الجيران .. لتمتص المياه من أرضنا .. وأسرع أبى إلى الخص المقام عند رأس الأرض وأتى بجردل .. راح ينزح به الماء من الأرض إلى الطريق .. فى سرعة وجنون .. يريد أن يزيح كل الماء عن صدرها .. حتّى لاتختنق ..

من فعل ذلك ؟ سؤال ظل معلقاً على شفتى لمدة أربع ساعات طويلة .. طويلة .. كأنها دهر ، والمياه تتضاءل وتتضاءل ولكن الأرز كان كالجثث .. وكان بركات قد جاء .. ومعه جاء والده .. وجاءت أمى والبنات كلهن .. كل منهن تحمل حلة من الحلل .. رحن ينزحن بها الماء من أرض الأرز .. إلى الطريق والمصارف ،

وأخيراً .. صفيت المياه من أرضنا .. لكن الأرز الأخضر .. كان مطروحاً على الطين .. خلع من جذوره .. عام فوق المياه .. بعضه انسحب معها إلى المصارف .. ومابقى كان كالجثث ميتاً .. ملتصقاً فى الطين .. ضاع أملنا مرة أخرى .. وأصبحنا كاليتامى ..

ولطمت أمى خديها وغرست هدى أصابعها فى الطين ووضعت ملء راحتيها منه فوق رأسها .. وبكت الصغيرات وبكى أبى وانهار فى الطين .. بجوار الجسر .. عجز عن النهوض ..

حملته أنا وبركات إلى الطريق .. حاولت أن أخلع ثوبه الممزق الذى بللته المياه ولطخه الطين .. لكنه رفض .. قاومنى .. وقال له عم طه أبوجلهوم :

– المهم صحتك ياعنانى .. الأرض تنزرع .. مرة ثانية ..

قلت :

-كيف .. كيف نزرعها مرة أخرى ياعم طه .. من أين ؟ .. اختلطت مشاعرى .. فبكيت .. عندما تصورت أبعاد المأساة التى حدثت .. تصورتها بأبعادها الحقيقية لانقود معنا لشراء شتلات أرز أخرى. ولاوقت لزراعة أرز من جديد .. كل الجيران زرعهم أخضر فى أراضيهم .. ولايمكن أن نزرع أرزاً بعد موعد زراعته بشهر .. ذلك يجوز فى أية أرض أخرى .. لكن .. فى هذا المستنقع .. هذه البركة .. لايمكن .. كل أراضى الجيران المرتفعة عنا .. من حولنا كلها أرز .. والمياه تنساب من أرضهم لتغرق أرضنا ..

تذكرت .. سألت :

- من أغرق أرضنا .. من ؟ .. سأقتله .. ماهذا .. صرخت حتى انشرخ صوتى :

- من أغرق أرضنا .. وضيع محصولنا .. من ؟

قال بركات وهو يهدئنى :

- لا أحد .. لأأحد ..

نظر إليه أبى .. نظرت إليه فى دهشة ..

قال عم طه أبوجلهوم :

- ترعة أم شوشة .. إذا جاء دورنا فى الرى .. امتلأت بالمياه .. وإذا امتلأت والسواقى معطلة .. طفحت وفاضت وأغرقت الأراضى الواطية .. هذا هو ماحدث ..

عدوى هو نظام الرى .. لكنه نظام غير خاطئ .. الخطأ أن أرضنا واطئة .. لكن .. المهم الآن .. ماهو العمل .. ماذا نفعل .. نظرت إلى شتلات الأرز التى خلعتها المياه من جذورها الضعيفة .. لم تكن قد ثبتت بعد فى مكانها .. انخلعت ..

صارت جثثاً خضراء فى الطين .. وأفقت على تجمع جيراننا الفلاحين .. خلع أحدهم « بشته » المصنوع من صوف الغنم ووضعه على كتفى أبى .. أشعل آخر النار فى بعض القش وأفرع الشجر ليدفئ أبى .. الذى كان ينتفض من البرد والبلل .. أصرت أمى على أن يخلع جلبابه المبتل .. أخذت هدى الجلباب وعصرته ونشرته على جسر أرض عم طه المرتفع ليجف ..

أحضر ثالث جوزة .. ورص كرسى دخان .. وقدم الجوزة لأبى فدخن .. ثم أعطاها لهم .. ومضى يحدق فى الأرض .. فى حزن شديد .. أخيراً قال بصوت ملئ بالأسى والدموع تبلل وجهه الشاحب المفزوع :

– حكمتك يارب .. حكمتك .

وصمت .. خنقه البكاء .. واهتز جسمه الهزيل ..

قال عم طه أبو جلهوم :

– الصبر ياعنانى وما من دابة إلا على الله رزقها .. المهم صحتك يا رجل . وكل شىء ينصلح حاله .

وقال بركات بمرارة .. أكدت الكارثة :

– لاتنفع الأرض لمحصول آخر .. إذا زرعت بغير الأرز هلك المحصول من المياه

قال :

– الأرض كالمصفى .. كل الأراضى تصرف فيها مياهها ..

قلت :

– وما العمل .. ضاع الأرز .. وعوضنا على الله .. لكن ما العمل الآن ..

قال عم طه :

– سنتركها حتى تجف .. ونردمها بالشرب ..

قال أبى أخيراً :

-كل الشرب على جريف المصرف .. اشتريته ووضعته فى الأرض .. بلعته وكل قش الذرة حملته من سطح الدار ووضعته بها .. وبلعته ..

وقال عم طه أبو جلهوم :

- لابد من ردمها أولا ياعنانى ..

قلت :

- سنظل نردم فيهاكم سنة يارجال .. إنها بلاعة ..

فقالت أمى بتأنيب ملحوظ ولوم مفهوم :

- سنردمها طول العمركله ياخالد .. ماذا جرى لك .. العقل يابنى .. العقل والدين ..

أحنيت رأسى .. إن جريمتى فى حق أسرتى تبدو الآن على حقيقتها .. بكل بشاعتها تمنيت لو دفنت فى طين الأرض .. لكن بركات قال :

- عندى فكرة ..

ونظر إلى والده ..

نظر إليه كل الرجال ..

قال :

- ما رأيك يا أبى .. لو .. نقلنا ردماً من أرضنا إلى أرض عم العنانى .. ؟

خيم الصمت وقتا طويلا .. لم يعل خلاله إلاكركرة الجوزة .. ووضعت هدى رأسها بين يديها .. وأمى لاتعرف كيف توقف دموعها وقال أبى أخيراً :

- لايابركات .

وقال أحد الفلاحين :

- وماذا فى ذلك ياجماعة .. أنتم الآن أهل .. عيلة واحدة .. وأرضكم مسيرها كلها للأولاد.

وقال آخر :

- ولم يعد هناك فرق بينكم ..

كان قد بقى يومان على عقد قران أختى هدى .. لم نصبح أهلا بالطريق الرسمى بعد.

قال أبى :

- لاداعى لذلك .. سنردمها يوماً بعد يوم .. بالتراب والشرب . والقش .. لا تحمل همنا يابركات .

وقال بركات :

- ما رأيك يا أبى ..

قال عم طه .. بعد صمت طويل :

- الرأى رأيك يا ولدى .. لك فدان باسمك .. أنت حر التصرف فيه ..

تكدر وجه بركات .. وقال أبى :

- لاتشغلوا بالكم بهذا الأمر ..

ثم نهض وأمر أمى أن تعود للدار مع البنات ..

وحاول أن يضحك .. أن يبدو عادياً .. لقد هزه اقتراح بركات من الأعماق .. أنا أشعر بذلك الآن .. إنه احساسى الذى لايفترق عن إحساس أبى .. الذى بدا وكأنه عاش ألف عام .. فجأة ..

نظر عم طه إلى ابنه فى صمت .. ثم نهض .. شعرت بأن العلاقة بينهما قد توترت .. إننا لم نصبح أصهاراً بعد .. بقى يومان على عقد القران .. وها هو ابنه

يقترح أن ينقل ردماً من أرضهم إلى أرضنا .. ماذا يفعل إذن بعد أن يصبح زوجاً لأختى .. إنه أمر مثير حقًّا .. ولن يقبله عم طه .. هو يحبنا .. وطلب يد أختى بنفسه من أبى .. وزرع مع أبى شتلات الأرز .. لكن .. لا يمكن أن يفقد أرضه خصوبتها وخيرها .. لمجرد أنه أصبح صهراً لنا .. أهذا كلام ؟ !

لو كنا مكان عم طه . . هل يكون لنا نفس موقفه . . أم أننا كنا سنقبل أن ننقل ردماً من أرضنا إلى أرضه .. لم يكن الوقت مناسباً لتوجيه السؤال إلى أبى .. كان يسير متكئاً على ذراعى .. ونحن فى طريقنا إلى الدار .. وأمامنا كانت أمى على بعد غير قليل تسير مع هدى والصغيرات . . كنا مهزومين تماماً . . والناس الذين نمر بهم يعزون أبى ويواسونه بكلمة أوكلمتين .. ثم يلتفتون إلى عملهم ..

* * *

امتد الليل .. لم ينم أبى .. ظل ساهراً .. صامتاً ..

قالت أمى :

- قومى ياهدى .. احلبى البهائم ..

ومرت دقائق طويلة .. وأنا أدخن سيجارتى فى صمت .. أحاول أن أتدبر الأمر ..

قلت لأبى : فى نصف يوم .. ضاع المحصول كله .. الأرض لازم تعلا .. وأضفت :

- توجد ترع ومصارف كثيرة .. وزرائب غنم فى البلد ..

نظر إلى بعينيه .. يبدو أنه كان يفكر فى نفس ماخطر لى ..

أضفت :

- لنشترِ شربا كثيراً وسباخاً من زرائب الغنم .. ونردم الأرض .. نرفعها لوجه

الدنيا .. لتشم نفسها ..

قال أبى :

- وأين لنا النقود ياخالد .. ؟ متر «الشرب» بالشيء الفلانى وغبيط السباخ بكذا ..

فكرت لحظة .. لو كتبت عشرين مقالة للجريدة .. ترى هل يكفى أجرى عنها .. سرعان ماضحكت ساخراً من فكرتى هذه ، فالجريدة لم تكن تعطينى راتباً شهريًّا يكفى لطعامى وسكنى إلا بالكاد .. ومعروف مسبقاً ما ستدفعه لى مقابل مقالاتى .. هذا إذا نشرها رئيس التحرير كلها .. أيقنت أن المسألة كلها لابد أن تحسم هنا .. فى دارنا .. فلا أمل غير ذلك ..

قلت :

- الجمعية الزراعية .. هل يمكن أن تحصل منها على سلفة ..

قال أبى :

- لاتتعب نفسك فى هذه المسائل يا ولدى .. الجمعية لاتعطى سلفاً إلا على المحاصيل .. وأرضنا خرابة ،.

صمت .. ولكن عقلى لم يكف عن اللهاث .. لابد من حل .. من يقرضنا المال .. سألت أبى :

-كم جنيهاً تلزم لردم الأرض يا أبى ؟ ..

قال وهو يخفى وجهه الذى ازداد شحوباً بين راحتيه :

- ثلاثمائة جنيه ياخالد .. على الأقل ! ..

أحنيت رأسى .. لم أغضب لتأنيب أبى لى .. لابد من مواجهة هذه الحقيقة .. إن المواجهة أمر لازم لاجتياز الازمة .. هذا شيء مؤكد .. إذن فلاداعى للخجل

من تكرار الأمر .. فأنا السبب .. والثلاثمائة جنيه هى سر الكارثة التى حطت بأسرتى .. وبأرضنا .. رفعت رأسى .. وقلت :

- نستدينها ..

سألنى :

- ممن ؟ .. من يدفع لنا هذا المبلغ .. ؟

قلت :

- أى إنسان .. من لديه مال فى البلد .

قال :

- لايوجد ضمان يطمئنهم على مالهم ..

قلت :

- الأرض هى الضمان .

قال فى عواء :

- نرهن الأرض ياخالد ؟

قلت :

- سنفك رهنها يا أبى .

قال :

- كيف . ؟ .. قد تغرق مرة أخرى .. وتضيع منا يا ولدى ..

قلت :

- المهم .. من يعطينا المال .. أنا أرهن نفسى يا أبى ..

ضحك بمرارة .. وقال :

- أنت ترهن نفسك .. كيف .. أهذا ما تعلمته من كتبك يا خالد ؟ ..

قلت .. دون أن يؤلمنى حديث أبى :

-كتبى لم تعلمنى فى الواقع شيئاً يصلح لشراء الشرب والتراب اللازم لردم الأرض .. ولكنها علمتنى يا أبى . أن أستفيد من حكمتك وصبرك وتفاؤلك أيضاً .. فأين صبرك يا أبى .. وتفاؤلك .. أنقذنا بهما يا أبى .. أين حكمتك .. قل لى يا أبى ماذا أفعل .. المهم .. أن تشير على بما يجب أن أعمله ..

وقف أبى فى وسط المندرة .. بدا هزيلا .. شاحباً .. لايقوى على الصمود فوق ساقيه وقتاً طويلا .. اقترب منى خطوتين .. اسرعت أقف بجواره ..

قال :

- نذهب إلى الحاج عبد الرازق ..

قلت :

- المرابى .. ألا يوجد غيره يا أبى ..

قال :

- هو وحده الذى يملك المال ..

وضعت مداس أبى فى قدميه .. والبالطو القديم على كتفيه وخرجت معه .. استقبلنا الرجل بابتسامة ودود .. لكننى شعرت بلزوجتها قلت له :

- نريد ثلاثمائة جنيه ياحاج ..

قال وهو يهرش قفاه السمين :

- ياريت ياخالد أفندى .. أنا رجل غلبان .. لا أملك غير الستر ..

نظرت إلى أبى ..

قال :

- حاج عبد الرازق .. يكفى أن تقرضنى مائة جنيه .. وسأردها إليك بعد أول

محصول ..

قال الرجل وهو يقلب عينيه فى وجهى ووجه أبى :

- مالى قليل ياعنانى .. وأرضك خرابة ..

قلت :

- سنصلحها .. ونزرعها .. يا حاج ..

قال :

- هى أرضكم .. تزرعونها .. تبيعونها .. أنتم أحرار فى ذلك ..

قال أبى :

- أنت تعرف العنانى .. كلمتى واحدة .. الأرض ذاتها ضمان لفلوسك يا حاج .

برقت عينا الحاج .. وسال لعابه .. مسح فمه بمنديل محلاوى أزرق باهت .. وقال :

- ولو أن أرضك يا عنانى لا تساوى كثيراً فى سوق الأراضى .. لكن لأجل خاطر خالد أفندى .. مد الله فى عمره ..

وددت لو أخنقه بيدى .. لكننى تمالكت نفسى وقلت :

- إذا كنت تقبل الأرض رهناً لمالك .. فنحن نريد ثلاثمائة جنيه .

دهش الرجل .. ونظر إلى أبى وقال :

- مائة جنيه يا عنانى .

قال أبى :

- ما رأيك ياخالد .. (ثم للحاج معتذراً) هو ابنى الوحيد كما تعرف .. وهو صاحب الأرض يا حاج ..

قال الحاج : هو ابنك يا عنانى .. لكنه يجهل أحوال الدنيا ! ..

قال أبى :

- الأرض والدار .. باسمه .. هو ياحاج ..

نظر الحاج إلىّ فى شك .. كان يعرف بالتأكيد السبب الذى من أجله باع أبى تراب الأرض ليردموا به البركة .. ظننت أنه لن يثق بى .. لكنه بدأ يساوم :

قال :

- على بركة الله .. أمد الله فى عمرك ياعنانى .. وعمر ابنك .. (بعد لحظة صمت) .. لدى مائة جنيه وعشرون .. تكفى ياخالد أفندى .. على أن تعود مائة وخمسين .. أو تعود لى الأرض !

قلت وأنا أبذل جهداً كبيراً لضبط نفسى :

- مقابل فدان واحد ..

قال :

- لايكفى .

قلت : أأنت تشتريه منا . إنه ضمان لمالك .. إذا عجزنا عن سداده .. كان الفدان لك .. هذا هو الاتفاق .. أيرضيك ..

لفنا الصمت لحظة .. ثم قال الحاج عبد الرازق :

- نكتب ورقاً بذلك ..

قلت :

- نكتب .

رفع صوته .. وطلب من ابنه أن يذهب لاحضار أحمد عبد الكريم .. قلت فى نفسى .. وهذه واقعة جديدة ستضاف إلى ذاكرة المفتى الطيب

القلب .. وتنهد أبى ..

قلت له :

- سنشترى تراباً وسباخاً وحطباً وقشًّا بالمبلغ كله ونردم به الأرض .. هل يكفى ..

قال أبى :

- سنرى يا ولدى ..

وصمت فترة .. ثم قال :

- هوانم .. بنت .. وفلحت فى المعمل .. ونحن رجلان ..

قلت :

- ولابد أن نفلح يا أبى .. أنسيت أملك .. إن الأرض لا بد أن تلد زرعاً .. ما زلت أذكر كلامك هذا ..

ضحك وقال :

- الصبر حلو يا ولدى ..

قال الحاج عبد الرازق .. بعد أن طلب لنا شاياً :

- أعرفتم .. من الذى حاول قتل هوانم ..

قال أبى :

- لا .. يقولون إن النيابة حققت مع عطوة وزوجته عديلة ..

قال المرابى :

- لم يثبت ضدهما شىء ..

ونظرت إلى جدران الحجرة المطلية بالطين .. وبطبقة من الجير .. انشغلت بذلك .. عن متابعة حديث الحاج وأبى .. لم أكن أرغب فى أى شىء آخر غير أن

نحصل على المال .. لإصلاح الأرض ..

لكن قدوم المفتى بعد دقائق .. جدد الحديث مرة أخرى عن هوانم .. وقال أحمد عبد الكريم وهو يخرج قلمه الكوبيا القصير وأوراقه من طربوشه :

- ياعنانى .. أنت لاتعرف أن قتل عطية فى أرضك كان لحكمة أرادها الله ..

نظرت إليه بدهشة .. ثم إلى أبى ..

لكن المفتى بدأ يكتب عقد الرهن .. رهن فدان من أرضنا .. للحاج عبد الرازق .. مقابل مائة وخمسين جنيهاً .. وقال :

- أى فدان منهما .. بينهما حدود ياعنانى أليس كذلك ..

قال أبى :

- حدود .. بعلامات المساحة .. على الجسور فقط .. لكن لاجسور ..

قال المفتى :

- إذن .. فليكن الفدان الملاصق لأرض العمدة ..

وكتب ذلك .. دون أن يعلق أحد .. أو يعترض .. لكن شيئاً خطر لى :

لماذا اختار أن يرهن ذلك الفدان بالذات .. إنه ملاصق لأرض العمدة .. والأهم .. أننا وجدنا به جثة عطية .. و ..

عدت أتذكر ماقاله المفتى منذ لحظة :

- «ياعنانى .. أنت لاتعرف أن قتل عطية فى أرضك كان لحكمة أرادها الله .. » لاشك أن ثمة علاقة بين ذلك وبين عثورنا على جثته بالفدان الملاصق لأرض العمدة .. لكن ماهى .. ؟ .. وهوانم .. ماعلاقتها بكل ذلك ..

مرة أخرى .. تذكرت ماقاله الشاويش النوبتجى فى نقطة البوليس ..

- «ليلة سوداء .. العنانى وابنه .. وهوانم وأخوها .. » اتفرجى يابلد ..

وقال أبى :

- الفلوس ياحاج ..

وأخرج الرجل حافظة نقوده .. وعد النقود جنيها بعد جنيه أمام المفتى .. كأنما ليشهده على إعطائه النقود لنا .. وطلب منى المفتى أن أوقع بجوار توقيع أبى .. على ورقة الرهن وارتعشت أصابعى وأنا أمسك بالقلم .. والرؤية تهتز أمامى .

الفصل التاسع

نشر على بغاغة الخبر فى القرية .

- العنانى رهن فدان للمرابى . . العنانى رهن أرضه .

نهره بعض الجالسين فى المقهى . . لكننى لم أخجل . . ابتسمت وقلت للمفتى :

- هل أخطأنا برهن الفدان ؟ . .

قال الرجل وهو يجذب أنفاساً متقطعة من الجوزة . .

- المهم . . أن تصلح الخطأ الفادح . . يا ولدى . .

وسكت . .

أخذت أفكر فى أشياء كثيرة . . تذكرت حياة القاهرة . . وقلت إننى لم أكن على خطأ . . إلى هذا الحد . . إنما الخطأ كان أيضاً فى الظروف التى تحيط بى . . لكننى اكتشفت أننى أهرب من الواقع . . وأحاول أن أرجع أخطائى إلى الآخرين والظروف . . وهذا ليس صحيحاً تماماً . .

قال المفتى :

- كان عرابى رجلا شهماً . . لكنه لم يكن ماكراً . . لأنه غفل عن الخديعة . . وكان مصطفى كامل زعيماً . . لكنه ظن يوماً أن الأتراك سيحررونا من الإنجليز . . و«سعد باشا» واجه الإنجليز والسلطان دون خوف لأن الناس كانت وراءه . .

وجذب نفسا من جوزته . وعاد يقول :

وفى يونيه . . كدنا نفقد كل شىء . . لكن ربنا سلم . .

قلت : كان درساً مخيفاً ! . .

قال : ترك جرحاً عميقا فى القلب والعقل يا ولدى ! . .

ثم دفع ثمن مشاريبه وخرج . .

شربت فنجان قهوة آخر . . وخرجت من مقهى أبو المجد . . سرت فى الطريق المظلم . . وعاودتنى رغبتى فى كتابة مقالة عن ضرورة إنارة القرية . . بالكهرباء . . وقلت فى نفسى إننى فى حاجة إلى الخمسة جنيهات . أجرى عن المقال . . إنها تنفع قطعاً فى ظروفنا الحالية .

وقلت : لأكتب المقالة الليلة وأبعث بها غداً إلى الجريدة بالبريد . .

لكننى عند انحناءة الشارع بالقرب من مسجد أبو عيسى . . رأيت هوانم بجوار جدار تنادينى :

- خالد أفندى . .

سرت إليها . . فقابلتنى فى منتصف الطريق . لاحظت أنها تعرج فى مشيتها . . أخذت يدها بين يدى . . وسرت معها . . «وكانت ليلى فى البداية تتلقانى بعناق طويل . . » .

قالت :

- لماذا لا تأتى لزيارتى .

تذكرت : « قبل أن تتركنى ليلى بأيام . . ألحت على فى أن أزورها فى مسكنها . . »

قلت : أنت تعرفين ما حدث للأرض .

قالت :

- عرفت أنك رهنت فداناً للحاج المرابى .

قلت :

- لم يكن هناك مفر ياهوانم .

قالت :

- وأنا ؟ . .

- أنت . . !

استندت إلى ذراعى وهى تعرج عرجاً خفيفاً بساقها اليمنى . . وقالت :

- معى نقود كثيرة . . هى تحت أمرك . .

لفنى الصمت فترة طويلة . . « عندما تركتنى صديقة العمر . . ظللت لوقت طويل أشعر بأننى أعرج فى مشيتى . . » .

قالت :

- معمل اللبن يكسب كثيراً . .

تنبهت . . لاحظت أننى أسير معها . . إلى المعمل دون أن أعترض . توقفت . قلت بتردد :

- نقترب من نصف الليل . . و . .

جذبتنى من يدى . . كانت أصابعها دافئة وأصبحنا على مشارف القرية . . بقرب الحقول الساكنة وفتحت باب معمل اللبن بمفتاح أخرجته من صدرها . . ودخلت خلفها . . فزكمت أنفى رائحة السمن والزبد . . واللبن . مررت بين آلات فرز اللبن اليدوية . . وسرت خلفها بين بعض الصفائح التى تبيع بها الجبنة للمحلات . . والبندر . . ودخلنا ممرا ضيقا . . بلاطه عريض . . ونوره

خافت . . ثم دخلنا حجرة بها مرتبة وحرام من الصوف . . فوق سرير قديم ذى أعمدة سوداء مرتفعة لقرب السقف . .

جلست أدخن سيجارتى . . وأرقبها وهى تضع على حصيرة مفروشة بجوار السرير حلة بها ثلاث حمامات محشوة بالفريك . . جلست أمامى . . وقالت :

- عشاء على ما قسم . . كل .

نظرت إليها . . كانت عيناها مليئتين بالرغبة تذكرت شبيهتها « ليلى » دائماً أتذكرها كلما نظرت فى عينى هوانم .

- هوانم . . ما هذا ؟

قالت ببساطة :

- ألم تكن لك صديقة هناك . .

قلت : كانت لى صديقة غالية . . لكن . . هناك شىء وهنا شىء آخر . .

قالت بدهشة :

- هل ترى فارقاً . .

قلت والموسيقى الغامضة المنبعثة من الحقول المحيطة بالمعمل تدغدغ حواسى :

- إنك أجمل !. و . . لكن . . «قلت لنفسى : تركتنى وحيداً . .».

قالت :

- صراحة . . أنا أحبك ياخالد . .

- لكننا فى القرية وأنت تعرفين أن لا شىء يخفى على الناس هنا . .

قالت :

- لقد عودنى عطية على أن أكون صريحة فى كل شىء . . وأن أطلب ما أريده . . وأسعى إليه . . بغير خجل . .

قلت بدهشة وأنا أحاول التخلص من ذكريات القاهرة :

- عندما رأيتك . . عرفت أنك جريئة . . لكن ليس إلى هذا الحد . . هل كان عطية . . يأتى إلى هنا كثيراً ؟

قالت وهى تقدم لى حمامة محشوة .

-كل أولا . .

ثم أضافت :

-كان صديقى . .

- قلت إنه طلب يدك . . .

قالت :

-كل . .

أكلت . . وأنا فى حيرة من أمرى . . إننى أمام امرأة ذات تجارب . . وقادرة على عمل كل ماتريده . . دون خجل . .

وقلت :

. . لكن . . هل قتل عطية لأنه طلب يدك حقًّا ؟

قالت :

- لأنهم عرفوا أنه طلب يدى . . قتلوه . .

قلت :

- من هم ؟ . .

قالت :

- لا تتعجل الأمور . . ستعرف كل شىء . . فقط كل . . الحمام لذيذ .

كانت شفتاها تلمعان وهى تأكل جناح حمامة . . تمنيت أن أقبل شفتيها . .

وازدادت رغبتى فى احتوائها بين ذراعى . . لكننى كنت مرتبكاً . كنت خجلا . . إنها ليست بنتا عادية . أو امرأة مثل أية امرأة أخرى . . ربما لأنه لم تكن لى تجربة سابقة فى القرية . . فمداعبات البنات اللائى كن يكبرننى بسنوات . . عندما كنت صبياً . . ونحن نجمع القطن فى أرض التفتيش . . لم تكن إلا مداعبات . . تذكرت يوم ضمتنى فتاة بيضاء حلوة إلى صدرها . . فصرخت صديقتها « الولد صغير يابنت » . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى وشعرت بالخجل . .

قالت هوانم :

- فيم تفكر ؟ . .

قلت وقد فشلت محاولاتى للسيطرة على رغبتى :

- فيك . . !

وضحكت . . فضحكت بصوت ملىء بالرغبة . . أعدت الشاى على موقد السبرتو فداعبتها :

- يبدو أن عطية . . رحمه الله علمك أشياء كثيرة . .

قالت :

- أصارحك . . بأننى أرغب فيك ياخالد . . أرغب فيك جداً . .

ضحكت . . وحسدتها على جرأتها . .

قلت محاولا كسب بعض الوقت :

- لست أفترق عن غيرى من شبان القرية . .

قالت بنفس صراحتها الموجعة :

- تفترق عنهم فى شىء واحد . .

قلت : « وبى رغبة جادة فى نسيان كابوس زواجى المؤلم »

- هل أعرفه ؟ ! . .

قالت :

- لأنك سترحل عن القرية ولو بعد أعوام . . وقد لا أراك مرة أخرى . .

قلت فى نفسى : وهذا ما يجعلها لا تخجل من تصرفاتها معى . . ربما . .

اقتربت منى . . أعطتنى الشاى . . رشفت بعضه . . سرى الخدر فى حلقى . . ثم فى جسدى . . لم أعد أشعر بالخجل . .

نظرت فى عينيها . . جذبتها إلى صدرى . . وقبلتها . كنت أحلم كثيراً بشفتى « ليلى » فى ليالى الحرمان منذ وقع الفراق هوانم أكثر دفئاً وأقدر على منح الحب أكثر من كل البنات والنساء . كانت أنثى . تعرف كيف تمتع الرجل . .

* * *

تمددت بارتخاء إلى جوارها ورشحتها لتكون ملكة جمال العالم . . فجسدها متناسق إلى حد كبير . . بروز صدرها واستدارة فخذيها وعنقها وعينيها وجدائل شعرها الناعم . . وحتى أصابع يديها الخشنتين وباطن قدميها المشققتين . . كانت متناسقة مع أنوثتها التى كانت غامرة . . كالنيل يوم فيضانه واندفاعه إلى الأرض الشراقى . . فى يوم قائظ . .

قالت . .

- ظننت يوماً أن عطية قادر ببندقيته وخنجره على حمايتى . . لكنه قتل . . وصمتت . .

قلت : لو عرفنا من قتله . .

قالت :

- هذا لا يهم الآن . .

وصمتت . . ثم نظرت طويلاً إلىّ وقالت : خالد . . هل أنت سعيد . . مثلى ؟ !

ضممتها إلى صدرى حيث غرقنا فى موجة جديدة عاتية من أمواج الفيضان المتدفقة . . «كانت ليلى تحبنى لكنها لم تجد أملا فى انتظار تحسن ظروفى . . » .

و . . مسحت حبات العرق عن جبهتى . . وقالت :

– متى تعود إلى القاهرة . .

قلت :

– بعد أن تلد أرض العنانى زرعاً . .

قالت :

– أنت قادر على أن تجعلها تحمل فى أحشائها لو عرقت فوقها ومنحتها الخصوبة ؟

ضحكت . . وقلت : لك خيال مدهش ياهوانم . .

قالت :

– أتكلم صدقاً ياخالد . هذا المعمل . . لو لم أحتضنه كل الوقت بين ذراعى لأخفقت . . صدقنى يا خالد . . إننى أمسح بلاطه بيدى . . أمسح آلاته بنفسى أنظف المخضات والصفائح وأعمل كل شىء بنفسى . . أليس هذا حباً . . أليس هذا متفقاً مع معملى . . إننى لا أمنح البذرة كما تعرف . . أنا أتلقاها فى أحشائى لأحتضنها . . وهذا المعمل هو البذرة التى تركها أبى فى أحشائى وأنا أحتضنها . . أما أنت . . فرجل . .

عدت أضحك . . لكن بتأمل :

– إنك على حق . . لكن . . كيف أمنح أرض العنانى الخصب ؟ .

ابتسمت . . وقالت . . وهى تلتصق بى :

- . . أنت قادر على ذلك . .

قلت :

- أنت لا تخجلين ياهوانم . .

قالت :

-كل الناس . . يخجلون . . ماذا أخذوا من الخجل . . إن الصراحة أسرع طريق لتحقيق ما نريد . . جرب . . وستنال . . أنت تريدنى الآن . . وبعد الآن . . أليس كذلك . . باستطاعتك أن تفعل ذلك . .

قلت :

- والقرية والناس . . ؟

قالت :

- أتظننى جاهلة إلى هذا الحد ياخالد . . أنا أعرف ما أفعله . . وما سيحدث أيضاً . . لكن ذلك لا يهمنى . . لسبب واحد . . أتعرفه ؟

ابتسمت . . وقلت :

- أعرف ياهوانم . .

قالت :

- أتعرف . . لقد حاولت مع المفتى . . أحمد عبد الكريم . . لكنه رجل فى السبعين كما تعرف . .

وضحكت وأضافت :

- لم يعد قادراً على شىء . . !

قلت :

- لكن عقله متزن . . ورأيه سديد .

قالت :

- لو اجتمع عقل المفتى مع شاب واحد مثلك . . فذلك سيكون أفضل قطعاً . .

صمت . . « لقد فقدت الصديقة ثقتها بى فجأة . . وذهبت . . »

وانثنى جسدها برشاقة . . ثم . . هبط بى وصرنا جسداً واحداً . . وتذكرت موجات الفيضان المتدفقة بعنف من بوابات القناطر الخيرية . عندما زرتها ذات يوم مع صديقتى ليلى . . « يومها احمرّ وجهها وأنا أحدثها عن رمز الخصوبة . . » همست فى أذنى :

- لن تنفذ خصوبتك قبل أعوام . .

قلت :

- إننى فى حلم ياهوانم ولا أصدق نفسى .

قالت :

- عندما تلد أرضكم زرعاً . . تذكرنى . . فقط . . امنحها نفسك تماماً . .

ودوت نقرات على شباك الحجرة . . فزعت . . وعرقت . . أسرعت أرتدى ثيابى وأنا ألهث . . أنظر إليها هامساً :

- ما هذا ؟ . . هل رآنا أحد . .

أشارت أن أصمت . .

عادت النقرات على النافذة . . فصاحت :

- اذهب يا على بغاغة . . قبل أن أخرج لك . . وأربيك . .

قال على بغاغة فى عواء . .

– أنا أحبك يا هوانم . . جربينى . . سترين إننى أحسن من عشرة رجال . . افتحى الباب يا هوانم . .

قالت :

– إذا لم تذهب فوراً . . سأخرج وأشرب من دمك . .

عاد يعوى . . كذكر القط الذى يموء منادياً أنثاه :

– أنا أحبك . . أنا أقوى من عطيه . . جربينى . .

ضحكت . . وأسرعت « توارب » النافذة . . فهرول على بغاغة مبتعداً وهو يعوى :

– أنا أحبك . . أنا أفضل من ثور العمدة . .

ونبحت الكلاب خلفه . .

أغلقت النافذة . . وعادت إلىّ مبتسمة . قالت :

– عقله خفيف . . لكنه فعلا أقوى من عطية . .

نظرت إليها كانت لا تزال عارية . . مثيرة دافئة . . .

هل عرفت قوته بنفسك . .

وجلست تسوى شعرها وتجدل ضفيرتيها ، ثم قالت :

– لا أمنح جسدى للمجانين أمثاله ! . .

وصمتت لحظة . . ثم فجرت قنبلة زلزلتنى .

– لكنه استطاع أن يقتل عطية . .

– ماذا ؟ ! . .

ارتدت ثوبها الأسود . . وقالت :

– ضحك عليه . . استدرجه إلى أرضكم . . وقتله . .

أمسكت بكتفيها بيدى . . وهززتها . . وأنا أقول !

- ولماذا أرضنا ؟ . .

قالت :

- هذا لغز لا أعرفه . . إلى الآن . .

سألتها :

- وهل أنت التى . . .

ضحكت . . وقالت :

- لم تفهمنى بعد . . كنت سأتزوج عطية فعلا . . لكنهم قتلوه . .

- من هم . . ؟ !

قالت :

- فى البداية . . ظننت أن عطوة وعديله هما اللذان قتلاه . . أو دفعا على بغاغة لقتله . . لأنه لوكان قد تزوجنى لحرما إلى الأبد من المعمل الذى يطمعان فيه . .

قلت :

- الأمر يزداد غموضاً . . إننى ظننت هذا لفترة .

فقالت :

- ولكن ليلة الحادث . . كان عطوة وعديله عندى هنا . . سهرا عندى الليل كله . .

- ربما لتغطية موقفهما بعد ذلك . . وإبعاد شبهة دفعهما لعلى بغاغة إلى الجريمة . .

قالت :

- لا . . إن من يملك السيطرة على على بغاغة . . شخص أقوى من عطوة . .

ابن زوجة أبى . . وأقوى من عديله أيضاً . .

قلت :

- ومن هو الذى يملك هذه السيطرة عليه ؟ . .

قالت :

- هو . . كما خطر لى أول الأمر . . هو الذى يريدنى زوجة له . . وعديلة أخته وعطوة زوجها شجعاه . . فربما كان ذلك أملا لهما فى الاستحواذ على المعمل وعلى القيراطين اللذين ورثتهما عن أبى . . لكن . .

وصمتت . .

- لكن . . ماذا ؟ . .

قالت :

-كان على بغاغة يعرف أننى أحب عطية . . وأننى لن أتزوج منه هو . . أبداً . . وإذن فهو لم يقتل عطية ليخلو له السبيل . .

وصمتت مرة أخرى . .

قلت :

- إذن فهو واحد من أعداء عطية . .

قالت :

- وما أكثرهم . .

قلت :

- ما يؤرقنى . . هو أن القتل تم فى أرض العنانى . . لقد أساء ذلك إلينا كما تعلمين . .

قالت بابتسامة طيبة واثقة :

- إذا منحت الأرض الخصوبة . . محوت كل الإساءات التى حدثت لها ولكم أيضاً . .

وبعد لحظة صمت . . أضافت :

- إذا احتجت مالا . . كل ما أملك تحت تصرفك .

شكرتها . . وهممت بالخروج . . لكننى تذكرت شيئاً نسيته . . سألتها . . ومن هو الذى حاول قتلك فى تلك الليلة . . قالت : فيما بعد ستعرف . .

عندما صرت وحدى . . فى الظلام أسرعت مبتعداً عن الحقول حتى صرت بين الأزقة والشوارع التى تطل عليها أحزمة القش وأعواد الحطب . انتابنى الخوف . . وتذكرت ماقاله المفتى ذات ليلة فى المقهى :

- إن هوانم . . تصيب كل من يقترب منها باللعنة . . اقشعر جلدى . . وشعرت بشعر رأسى يرتفع تحت التلفيعة التى أتعمم بها . .

وأسرعت الخطى إلى الدار . . ونباح الكلاب فى الزرائب وفوق الأسطح يرعش قلبى ويزيد من انقباضى .

الفصل العاشر

بعد أسبوع . . جفت الأرض إلى حد ما . . امتصت الشمس بقايا الماء منها . وحان وقت العمل . . تحركت عشر عربات كارو لتنقل الشرب والتراب من جسور المصارف فى القرية إلى أرض العنانى . . اتفق أبى ليلة أمس مع « أبى حبيب » تاجر الخيول على استئجار عرباته الكارو . . وعلى شراء مائة نقلة سباخ من زرائبه . . وقفت فى الأرض . . أشرف على إنزال الردم الجديد فى الفدانين . .

جاء بركات . . كان صامتاً . . حزيناً . . أمسك بفأسه وأخذ يسوى الردم بالأرض . . ويهشم الدبش الكبير برأس الفأس . .

فوجئت بوالده . عم طه أبوجلهوم . . يسوق أمامه حماره محملا بغبيط سباخ . . نزل به أرضنا . . وأفرغ غبيط السباخ فى وسط الأرض . . وبعثره براحتيه . . وقال لابنته بدرية أن تأخذ الحمار لتأتى بحمل آخر من السباخ . .

أسرعت إلى عم طه أبو جلهوم . . قلت له :

– إننا أهل ياعم طه . . وهذه مثل أرضك تماماً . .

قال الرجل :

– وأنت مثل بركات ياخالد أفندى . . لكن . . ماحدث كان رغماً عنى . .

قلت له :

– أعرف ياعم طه . . فليس سهلا أن يفرط الإنسان فى حفنة تراب من

أرضه . .

قال الرجل :

- لكننى لن أتأخر عن عمل شىء أستطيعه . .

وجاءت عربات الردم . . فانشغلنا بعض الوقت فى إنزال أحمالها فى الأرض . . ثم زاملت بركات بالفأس لنسوى الردم فى الأرض . .

قال بركات :

- سأسافر إلى السويس بعد أسبوع . .

قلت :

- نعقد القران الليلة إذا شئت يابركات . .

قال :

- ظننت أنكم غضبتم منى . .

قلت :

- لقد تسرعت باقتراحك . . أنت تعرف أن الفلاح لا يفرط فى ذرة تراب واحدة من أرضه .

قال :

-كنت حزيناً لغرق الأرز وضياعه . . ظروفكم لا تحتمل هذه المصيبة الكبيرة . .

قلت :

-كل شىء يمكن إصلاحه . .

ومضينا نسوى الردم فى الأرض . . والتراب يملأ أنفى . . ويضايق عينى . . وجاءت بدرية بحمل آخر من سباخهم على ظهر الحمار . . أسرعت إليها . .

وقدت الحمار إلى وسط الأرض وأنزلت حمله . . انحنت بدرية تبعثر السماد فى الأرض ببراعة . كانت أصابعها البيضاء المصبوغة بلون روث البهائم . تنغرس فى السباخ وتنثره حولها . . وبين قدميها بسرعة . . تدلت ضفيرتاها على صدرها الناهد . . وكشف ثوبها عن باطن ساقيها البيضاوين وسروالها « أبوكرانيش » وجدتنى أزداد إعجاباً بها . . ورفعت قامتها . . ومضت إلى الحمار تقوده إلى حظيرة بهائمهم لتأتى بحمل آخر من السباخ . . لكن عينيها رمقتانى بنظرة كلها عطف واهتمام . .

ابتسمت لها . . وعدت إلى الفأس بجوار شقيقها بركات .

* * *

فى اليوم التالى . . وقبل أن تنزاح غبشة الصباح عن أفق القرية . كان أبى يحمل الكوريك على كتفه . . وفأسى فى يدى نسير على أرض البركة . . فى الطريق إلى الغيط .

قلت :

– على بغاغة نشر الخبر فى المقهى أمس .

قال أبى :

– لم يوافق العمدة على بيع أرضه لمشروع المدرسة !

قلت :

– قال على بغاغة إن العمدة أعد طعاماً دسماً لأعضاء اللجنة التى جاءت تعاين أرضه فى حوض البلد . .

قال أبى !

– هو يعد الطعام دائماً لكل المسئولين . .

عبرنا شريط السكة الحديد الذى علاه الصدأ منذ إلغاء القطار الذى كان يربط القرية بالمركز . . بعد رصف الطريق الزراعى . . وملنا شمالا مع الطريق . .

قلت لأبى :

– قال لى المفتى إن العمدة قد تجاوز كل الحدود ! . .

قال أبى :

– إذا لم نجبن . . فنى الإمكان عزل العمدة . .

سألت :

– أيستحق العزل حقًّا ؟ . . .

قال : « العمدة عمل الكتير ضد البلد » .

قلت :

– عرفت أنه تحايل على قانون الإصلاح الزراعى وحاول استّرداد أرض العزبة من الفلاحين . .

قال أبى : المفتى كشف هذا كله للأهالى . . لكن العمدة يقول إنه « واصل » للكبار فى البندر .

قلت :

– غير معقول ، ولماذا نسكت إذن . . ؟

قال أبى :

« العمدة يغطى نفسه ببراعة . لكن لكل شىء نهاية . . » .

وهاهى الانتخابات قادمة . .

ابتسمت وأنا أقول :

– لم لا ترشح نفسك يا أبى . .

ضحك وقال :

– الانتخابات تحتاج إلى ناس تفهم أكثر منى . فالبلد فى الحرب . . مثل أرض العنانى . . خرابة . . لابد من إصلاحها . . فى كل شىء . .

* * *

تذكرت أيامى فى القاهرة كان الجميع يطالبون بالتغيير . . كانت الحياة براقة . . ومثيرة حقًّا . . حتّى انكشف كل شىء فجأة . .

المهم أن نصلح الخطأ . . كما قال المفتى . . حتّى لا نضيع إلى الأبد . .

شغلنى الحديث عن العمدة . . لماذا تسكت عنه القرية ؟

عندما وصلنا إلى القناة الفاصلة بين أرضنا وأرض العمدة . . وقف أبى بعد أن خلع جلبابه وشمر سرواله . . يغرس الكوريك فى طين القناة . . بعمق كبير . . وجدت أن أرض العمدة توازى رأس أبى . . إنها أكثر ارتفاعاً . . ولابد أن تصل أرضنا إلى مستواها حتّى لا تغرق مرة أخرى من نشع الأراضى وفيضان الترعة . .

قال أبى :

– سنعمق القنوات . . حتّى لا تطفح مياهها وتضر الأرض . .

جاء بركات بالكوريك . . وحيانا . . ثم خلع جلبابه . . وعمل فى نفس القناة على مسافة خلف أبى . . أمسكت بفأسى . . ورحت أعزق طين الأرض مع أبى . . ثم تركت الفأس ورحت أحمل الطين المتبقى من الكوريك وأصنع منه سداًّ مرتفعاً فوق جسر الأرض . .

قال بركات وهو يتفل فى راحتيه ويفركها :

– أسمعت ياعم عنانى بما حدث ليلة أمس فى مضيفة العمدة . .

قال أبى :

-كنت متعبا ونمت أمس يابركات .

سألت :

- ماذا حدث ؟

قال بركات وهو يضغط الكوريك بقدمه ويهزه بيده ثم يرفعه محملا بالطين إلى جسر أرضنا . .

- انكشف المستور . . وكانت فضيحة . . وحضر ضابط البوليس . .

ومضى بركات يروى تفاصيل ما حدث لأبى . . وأنا مشدود إلى روايته . .

قال بركات :

- الانتخابات بعد عشرة أيام كما تعرفون ، وقد كشف المفتّى ألاعيب العمدة وقال كل فضائحه للناس .

. . قال أبى « المفتّى والله رجل جدع . . ».

قال بركات : المفتّى قال للناس فى المضيفة أمس وأمام حضرة الضابط إن العمدة كان يتبرع بمال كثير لإحدى الجهات التى حاولت انتهاز فرصة النكسة والهزيمة . .

وضحك بركات . . وهو يكمل الحديث :

وقف العمدة . . وأعلن أن المفتّى كان يتستّر على عطية . . لكن الناس كلها ضحكت وكذبته . .

قلت :

- عطية . . ؟ . . يبدو أن عطية له فى كل حكاية جانب كبير . .

قال أبى . .

-كان حامى حمى من يدفع له أكثر . .

قلت :

- لكنه كان يدافع عن البلد كلها . .

- قال أبى :

-كانت المسألة يا ولدى . . أنه جعل من نفسه حامى حمى البلد . . وكان إذا سرق سارق بهيمة من بلدنا . . يعتبر ذلك استهانة بأمره هو وإهانة موجهة إليه . . ولذلك كان يسعى حتّى يعيد المسروقات لأهلها . . أو ينتقم من السارق . .

قال بركات :

- وليلة أمس كشف العمدة نفسه . . واتّهمه الضابط . . بالتستر على عطية . . وحمايته من البوليس . . وغداً قد ينكشف أمر قاتله . . فالمسألة هى جمع الأدلة الكافية . .

نظرت إلى أرض العمدة . . المرتفعة عن أرضنا . . وخطر لى أن أتخيل وقوع جريمة القتل كما حدثت . . فرأيت بخيالى أنها تمت فى أرض العمدة ثم رمى بجثته إلى أرضنا وغطيت ببعض القش . .

رويت تصورى لأبى وبركات . .

فقال أبى :

- بين أرضنا وأرض العمدة . . هذه القناة . . وارتفاع مترين . .

قال بركات :

- لكنها تكفى لإبعاد الشبهة عن العمدة . .

قلت :

- هذه هى الحكاية إذن ؟ . .

لكننى تذكرت اعتراف هوانم لى فى تلك الليلة . . قلت :

- لكن . . على بغاغة هو الذى قتل عطية . .

قال أبى :

- القرية كلها تعرف أن على بغاغة . . خادم مطيع للعمدة . .

وقال بركات :

- واختيار على بغاغة كان دليل خبث العمدة . . فإذا ضبط البوليس على بغاغة . . ظل العمدة بعيداً عن الشبهة . . لأن البلد تعرف أن على بغاغة هو شقيق عديلة زوجة عطوة . . وحكايتهما مع هوانم معروفة .

قلت :

- شيء غريب حقًّا . . كيف يجد العمدة . . وقتاً كافياً لأمور البلد . .

ضحك أبى . . وقال :

- قلبك طيب ياخالد . . ثم أضاف : كل وقته للأذى والكيد ضد البلد . . ثم توقف لينظف الكوريك من الطين اللاصق به بقطعة من الصفيح السميك . . وقال :

- كنت تعيش هناك . . وتجهل الكثير من أمور البلد . . ثم ضحك :

قلت :

- لكن على بغاغة . . لايبدو عليه أنه قاتل . . إنه مثل مهرج سيرك الحلو . .

قال بركات :

- إذا قال له العمدة إنه سيزوجه من هوانم . . فإنه على استعداد لعمل أى شيء يطلبه منه العمدة . .

قلت :

- لكن . . لماذا لم يقل الناس كل هذه المعلومات لضابط البوليس . .

قال أبى :

- لا أحد يريد أن يسبب لنفسه المتاعب . . يا ولدى . . فعطية لم يكن يؤذى أحداً منا . . وعلى بغاغة . . لا عمل له إلا الدوران على مقاهى القرية والتهريج . .

قلت :

- لكن عطية قتل فى أرضنا يا أبى . .

قال ببساطة :

- لا أقدر على العمدة وحدى ياخالد . .

قلت :

- لا يملك لنا شيئاً ؟

قال أبى :

- أنت لا تعرف علاقته بالكبار يا ولدى . . إنه دائماً يقول إنه يعرف المحافظ شخصياً . . ثم إن فلوسه كثيرة وكان دائماً على رأس المتبرعين لمشاريع المحافظة . . ليغطى نفسه . .

- ولو . . إنه لن يشنقنا إذا قلنا الحقيقة . .

قال بركات :

- لم يكن أحد سيصدقنا لو تكلمنا وحدنا ياخالد .

داس أبى على الكوريك بقدمه . . ثم قال بعد وقت :

- يا ولدى . . أرضنا لا يمكن أن تغرق أرض العمدة . . وخولى العمدة بإمكانه أن يغرق أرضنا كل يوم دون أن نفعل له شيئاً . .

وخيم الصمت وقتاً طويلاً . .

تذكرت كلمات الحاج عبد الكريم . . واكتشفت معانى جديدة لها . . «جيل

جبان . . يخاف من كل شيء . .» وقلت لنفسي : والمفتي نفسه – لماذا يخاف . . إنه يلومنا . . لكنه كان يعرف الحقيقة . . لماذا لا يتكلم ؟ . . وخطر لي شيء . . لم أدهش له . . إن الجبن قد تأصل في حياة الفلاحين منذ ساقهم رجال خوفو بالسياط أيام التحاريق ليحملوا أحجار الهرم الأكبر ويبنوا له مقبرته العظيمة . . أعتقد أن أحداً منهم لم يعترض . . لم يرفض . . كتب التاريخ تروى لنا عمن تمردوا على السخرة في حفر قناة السويس . . وعمن قتلهم العطش والجوع والمرض . . وعن هروبهم من جيش الإنجليز في الحرب الثانية . . لكن آثار الفراعنة لا تحكى لنا شيئاً عن خوف الفلاحين من خوفو . . فقط تحكى لنا عن عبادتهم له . . وتقديسهم لكلماته . .

أنهيت حديثي مع نفسي بوعد قطعته على نفسي أن أرجع إلى كتب التاريخ لأبحث هذه المسألة . . ثم غرست أصابعي في الطين لأطهر القناة من بقايا كوريك أبي . . لكنني شعرت بشيء حاد يمزق جلد أصبعي الأوسط . . أخرجت يدي من الطين في فزع . . كان الدم ينشع من جلدي ويصبغ الطين . . مسحت يدي بسرعة في بنطلوني وجدت جرحاً بطول عقلة من صباعي . .

لاحظ أبي انزعاجي . . قال :

– لا تخف . . إنها قوقعة . . جرحتك . . ضع قطعة من الطين على الجرح . .

وضعت قطعة من الطين اليابس على الجرح . . لكن الدم لم يتوقف . .

قال بركات :

– مص الدم بفمك . . حتى يجف .

ثم ترك الكوريك مغروزاً في الطين وجاء إليّ . . ووضع بعض التراب من ردم الأرض على الجرح وقال :

– سيجف حالا . . لا تنزعج . .

شعرت بالتراب يحرق الجرح . . لكننى أخفيت ألمى حتى لا أبدو « خرعاً » . أمام أبى وبركات . . وربطت يدى بمنديلى . .

* *

فى الليل . . أردت أن أخرج إلى مقهى أبو المجد . . كانت بى رغبة حادة لأعرف أخبار البلد . . وماذا حدث فى الصدام المكشوف بين العمدة و . . المفتى . . لكننى شعرت برجفة تسرى فى جسدى . . وبصهد ينبعث من حلقى وعينى . . جلست مرهقاً . . كان الضعف يسرى فى جسدى . .

لاحظت أمى ذلك . . وكان أبى يحلب البهائم فى الزريبة . . أسرعت أمى إلى . . سألتنى :

– سلامتك ياخالد يابنى ! . .

قلت محاولا الابتسام :

– أبداً . . بعض التعب . . فلا تجزعى يا أمى ! . .

قالت . الجرح يؤلمك .

حاولت أن أطمئنها . . لكنها فكت رباط يدى . . ونظرت إلى الجرح . كان أصبعى ملتهباً . . شعرت بأصابع أمى باردة مرتعشة ! . .

أسرعت أمى إلى بيوت الجيران تبحث عن بعض البن . . عادت بعد وقت وفى راحتها بعض منه . . وضعته على الجرح . . كبسته فى الجرح . . بأصابعها . . تألمت . . لكن أمى ربطت أصبعى بالمنديل ولفته حول يدى . . وقالت :

– إن شاء الله . . خير .

ثم بكت وهى تضيف :

– العين أصابتنا يا ولدى . .

قلت :

– لا تقلقى يا أمى . . سأخف حالا . . إنه بعض التعب فقط . .

لكننى ازددت تعباً . وسرت البرودة فى جسمى الذى انتفض رغماً عنى . . سرى الحزن فى الدار . . أبى قبع فى ركن الحجرة . . والبنات . . نمن فى صمت . . وهدى . . قالت :

– خذى « أترا » من ثياب أخى . . واذهبى يا أمى إلى الشيخ « أبو حلاوة » . .

ضحكت . . لكن ضحكتى كانت شاحبة مرتعشة . . قلت بصوت اكتشفت أنه واهن :

– لا داعى لذلك ياهدى . .

قالت أمى : إنه شيخ مبروك . . كان يصنع الأحجبة لك وأنت صغير . .

ثم أضافت لتشجعنى :

– لقد اشتراك منى بتعريفة فضة مخرومة . . علقها فى عنقك يوم ذهبت بك إليه وأنت رضيع . . كنت تسهل وتكح . يده مبروكة ياولدى . .

قلت محاولاً إقناعها برفضى :

–كان ذلك جائزاً يوم كان فى وعيه . . سمعت أنه الآن عجوز يخرف . .

قالت أمى :

– أبدا . . إن وجهه مثل الحليب . . وشعره أبيض كأولياء الله الصالحين . . !

ضحكت . . لكننى نمت . . وأنفاسى تلهث . . لم أنم بالفعل . . وإنما شعرت بالضعف وسخونة جسمى . . يعجزانى عن الحديث . .

رأيت بعد فترة . . كالحلم . . أن أمى أشعلت ناراً فى « الموقد » ووضعته بجوار

فراشى . . ووقف أبى وفى يده بعض الملح يرقينى . . ويردد آيات من القرآن . . ويصلى على الرسول وأصحابه . . والدموع تلمع فى عينيه . . ثم وضع الملح فى النار . . ففرقع . . وعاد يمسح جبهتى الملتهبة بقطعة « شبه » وفاسوخة عدة مرات وهو يبسمل . . ثم وضعها فى النار . . بعد لحظة شهقت أختى هدى :

– فى عين الحسود . . الحسود لا يسود . .

وتذكرت أشياء بعيدة . . كان أبى يرقينى وأنا تلميذ فى المدرسة . . وكان يقول إن يده مباركة . . وأنه لو بنى مقاماً . . وادعى أنه ولى من أولياء الله . . لكسب كثيراً . . من صندوق النذور ومن هدايا الناس وعطاياهم . . كان يضحك يومها . . ببال رائق . . وتذكرت يوم اكتشفت حجاباً تحت وسادتى وأنا أذاكر للشهادة التى رسبت فى امتحانها . .

اختلطت الرؤيا أمامى . . وكبرت عروق الخشب فى سقف الحجرة من خلال رموشى المنسدلة على عينى . . وبدت مثل أعمدة كوبرى أبو العلا . . وتذكرت كوبرى قصر النيل . . يوم فكرت فى الانتحار . . هرباً من رسوبى . . وانزاحت ستائر كثيفة داكنة عن ذاكرتى فعادت أشياء كنت قد نسيتها . . إلى وعيى . . تذكرت تفاصيل رؤياى يوم الانتحار . . وتصورى لجثتى وهى تعوم تحت الماء وتعبر الكبارى والقناطر لتصل إلى البحر الصغير ثم تندفع إلى ترعة أم شوشة لتخرج من الساقية وترانى هدى فتصرخ ويهرول أبى والجيران . . وينتشلون جثتى . .

قالت لى أمى ذات يوم إن الغريق يظل فى الماء حتى يصل إلى قرب بلده فيتوقف بجوار الشاطئ حتى ينتشله أهله . . وحكت ما حدث لمصطفى العريان المراكبى الذى غرق ذات يوم فى رحلته وهو يشد « لبان » المركب التى كان يعمل بها . . ثم عادت جثته مع الماء إلى قرب القرية . . ورآه الغجر الذين يسكنون فى

خيامهم على شاطئ البحر خارج القرية هم وقرودهم وأخبروا أهله فانتشلوه . .

تداخلت الذكريات . . أصبحت كفيلم سينمائى أسيء إنتاجه فى معمل مرتبك . .

رأيت صورة ليلى . صديقتى الحلوة التى تركتنى لعجزى عن الزواج بها . . كانت تزورنى كثيراً بالجريدة رأيتها تصفعنى . . وتبصق فى عينى وتهرب منى ورأيت « زوجتى » التى قدمت لى شيكات ووقعت عليها . . قالت لى يومها إنها لا تقيدنى رغماً عنى . . واعترفت لها أننى أحلم بأن أرث عمارتها . . لكنها لم تكن عمارتها كما عرفت فيما بعد . . حاولت أن أعزى نفسى بأننى « أحبها » لأنها تمنحنى حنانها وفراشها وشقتها . . تذكرت أننى حرمت من حنان أمى مدة عشر سنوات . . واكتشفت أن الريفى . . مثلى . . يظل مهزوزاً فى الغربة لانفصاله عن أسرته قلت ذلك لليلى . . لكنها ملت كل شيء تذكرت أيضاً أن أبى كاد يحرمنى من إكمال دراستى لأن المدرسة الثانوية كانت فى المركز بعيداً عن القرية بمسافة يقطعها قطار الدلتا فى نصف ساعة . . وقد خشى أن أموت تحت عجلات القطار كما حدث لتلميذين من القرية . . أبقانى بجواره . . حتى بنى مرشح الوفد المدرسة بالقرية . . فأكملت دراستى . . تذكرت يوم شجت عظام جثة حصان فى نهر البحر الصغير قدمى . . وأسالت الدماء . . وكدت أغرق وأبى مشغول بالاستحمام فى البحر ذات صباح لكنه أنقذنى وحملنى إلى الدار . . ويوم سقطت من فوق جحشة صغيرة رباها أبى بعد أن ولدتها حمارتنا . . ركبتها ومعى الغداء لأبى ذات يوم جمعة . . لكن الجحشة حرنت فضربتها ورفعت ساقيها الخلفيتين وقذفت بى إلى الطريق وكسرت ذراعى . . وبللنى العرق . . وهوانم بين ذراعى . . تحكى لى عن رصاصة عطوة التى أصابتها فى فخذها وقالت إن عديلة وضعت لها السم ذات يوم فى

فطيرة . . لكنها لم تأكلها . . وقالت إن أباها الزناتى قتل مسموماً من عطوة وزوجته عديلة . . وأنهما سيصابان بالجنون إذا لم يأخذا معمل اللبن والقيراطين . . وقبلتنى وقالت :

– أبحث عن رجل له عقل المفتى وشبابك . . ليحمينى منهم . رأيت نفسى أحترق على المنصة الرخامية بميدان التحرير الواسع ولا أحد يبالى .

أفقت على يدى أمى وهى تربط لى رأسى بمنديل أبى . . وسمعتها تقول لأبى :

– قال الشيخ أبو حلاوة إنه مرصود . . وطلب ديكاً أسود لا أشارة به . . وزوج حمام قطاوى . . ودم هدهد . . ليكشف عن العمل المكتوب لخالد . . وقال إن العمل فوق فى قبر اليهودى تاجر الذهب والجان لها مطالب كثيرة لتأتى بالعمل . .

قال أبى .

– ربنا موجود . . .

قالت أمى :

– ونعم بالله .

ثم جست حرارتى براحتها ومصمصت شفتيها ثم مسحت دموعها بطرف جلبابها وأفرغت به أنفها . . ولم تكف عن البكاء . . وطلبت بعض الأسبرين .

خيل إلى أننى أسمع هيصة فى الخارج . . كأن أحداً يصرخ . ورأيت ضوءاً أحمر مختلطاً بالدخان من زجاج نافذة الحجرة المكسور . .

صرخت أمى . . وأسرع أبى إلى الخارج . .

ازداد عرقى بغزارة وبلل جسدى كله . .

وارتفع الصراخ مختلطاً بنباح الكلاب وصفارة خفير الدرك . .

وفى الصباح عرفت أن حريقاً شب فى دار عم عبده مبيض النحاس لأنه نام

دون أن يطفئ الموقد جيداً . . وشبت النار فى القش وكادت تحرق الدار كلها . .

وقال أبى : إن ضابط البوليس حرر محضراً للرجل الغلبان لأنه كان سيحرق القرية كلها . . بإهماله . .

سألت أبى : وماذا فعل فى العمدة .

قال أبى :

- لا أعرف . . لكن على بغاغة . . اختفى من البلد كلها .

اتسعت عيناى - وسألت :

- قتلوه ؟

قال :

- لا أحد يعرف . .

حاولت أن أنهض . . لكننى شعرت بالدوار . . كنت متعباً . .

قالت أمى :

- نم يا ولدى . . لا ترهق نفسك .

ثم همست بدعاء :

- يارب . . ليس لنا غيره . . فاحفظه من أجل أخواته الولايا . .

وسمعت صوت هوانم فى حوش الدار . . وقالت هدى :

- أمّا . . هوانم تريد اللبن .

جاءت بنفسها لتشترى اللبن . . هل عرفت أننى مريض . . سمعت صوتها فى الحوش تسأل عنى :

قالت لأمى :

- خذوه إلى الطبيب فى المركز . . هو طبيب شاطر يا أم خالد . .

غمغمت أمي بكلمات . . تبينت منها كلمات متقطعة :

- الشيخ أبو حلاوة . . فتح له الكتاب . .

سألها أبي . . وهو جالس إلى جوارى :

- أعرفت ما حدث لعلى بغاغة ياهوانم . .

وجدتها فرصة لدخول الحجرة . .

كانت قلقة . . فى عينيها لهفة واضحة . . تحسست جبهتى دون أن تخجل من أبي . . قالت :

- جسمك سخن جداً . . شد حيلك . .

ثم قالت لأبي :

- قالت أخته عديلة إنه هرب من البلد لكننى سمعت أن الغجر قتلوه على شط البحر ورموا بجثته فى الماء . .

قال أبي :

- الغجر . . ناس فى حالهم . . مالهم وعلى بغاغة . .

قالت :

- ناس مداحين . . على باب الله . . يجمعون قوتهم بالربابة والطبل وترقيص القرود . . لكنهم لا يقبلون أن يخونهم أحد فى نسائهم . .

قال أبي .

- على بغاغة . . له نفس هو الآخر . .

ثم ضحك وقال :

- مات ونفسه فيك يا هوانم . .

قالت هوانم :

- ألم يطلبكم ضابط البوليس مرة أخرى . . بسبب الحادث . .

قال أبي :

- منذ خرجنا . . يوم كنت هناك . . لم يطلبنا بعد ذلك . .

ثم قالت هوانم :

- الحمد لله . . انكشف المستور وفضح الله العمدة .

ثم خرجت وهي تبتسم لي . .

شعرت بالرغبة في لقائها . . لكنني كنت أرتجف وقد بردت أطرافي وطلبت غطاء آخر . .

الفصل الحادي عشر

بعد يومين .. زغردت أمي .. كنت قد شفيت .. لكنني مازلت عاجزاً عن الذهاب إلى الأرض .. ووزعت أخواتي الصغيرات حلل الشربات على الجيران .. وأقبل الرجال ومعهم المأذون كان بركات في أبهى ثيابه .. مشرقا فرحاً .. وعقد القران .. ومن يومها لم تذهب هدى إلى الأرض .. كل من تخطب أو يعقد قرانها من بنات القرية «تستخبي» .. لاتغادر البيت ولا يصبح لها عمل سوى الإشراف على الدار .. والطبيخ والعجين .. لتكتسب خبرة أكثر .. استعداداً لدار المستقبل .. لأنه يكون عيبا كبيرا أن تكون العروس جاهلة بأمور دارها .. لو فشلت في تصريف شئون الدار .. أعادها زوجها إلى أهلها .. حتى لايعيره أهله بجهل عروسه ..

ملأني الفرح .. وعقد القران .. هو الفرح الحقيقي .. لأن الدخلة تتم بعد ذلك .. في ساعات .. بمجرد أن تتجلى العروس وتتزين .. يأتي العريس ليأخذها في زفة من الطبل والزغاريد .. أما عقد القران .. ففرح حقيقي .. تسهر البنات يغنين ويزغردن طول الليل .. وهن يرددن :

- أيوه يا ولد خدت القمورة ..

أصبت بالصداع من الطبل والغناء .. لكنني كنت سعيداً .. أول مرة أشعر فيها بالسعادة الحقيقية .. حتى أنني ابتسمت ساخراً وأنا أتذكر يوم زفافي الكئيب على صاحبة العمارة والشيكات .. كان أهلها يحيطون بي يومها .. وكأنهم يخشون أن

أهرب وأترك عروسهم .. كانوا يحاصروننى .. أبعدت الذكرى الحزينة عن بالى .. ونهضت .. لأقبل أختى حيث تقبع بين صاحباتها من بنات الحارة .. رأيت البنات يقرصنها فى فخذيها .. وهذه عادة البنات عندنا .. كل منهن تقرص العروس وهى بذلك تستجلب الحظ الطيب لنفسها حتى تتزوج بسرعة ولاتبور .. قبلتها وقلت :
«قرصتك فى ركبتك .. حصلتك فى جمعتك .. »

ضحكت البنات لتقليدى لهن .. وقلت :

- مبروك لعروستنا .

ابتسمت .. وقالت :

- العقبى لك .. لنفرح بك ياخالد ..

نظرت إلى بعض البنات .. لابد أنهن يعرفن أننى تزوجت قبل ذلك .. وطلقت .. لكننى تغلبت على قلقى .. وابتسمت .. وأخذت أداعب البنات .. ثم اكتشفت أن بدرية تقف بجوار العروس .. كانت حلوة .. كأنها عروس .. قلت لها مداعباً :

- عقبالك يا بدرية .. إن شاء الله ..

تغامزت البنات .. لابد أنهن يتنبأن بأننى سأتزوجها .. فتبادل الزواج .. يحتم ذلك .. ابتسمت .. وخرجت .. رأيت هوانم تبارك لأمى .. كانت تحمل قفصاً كبيراً به فاكهة وزجاجات من الشربات .. ابتسمت لها ودخلت إلى المندرة حيث يسمر الرجال .. كان بينهم المفتى مازال جالسا .. قدمت له سيجارة .. تحية الفرح المعتادة .. ثم ذهبت إلى بركات بين رفاقه الشبان .. استقبلنى قائلا :

- نريد أن نفرح بك يا خالد أفندى ..

قلت :

- بعد أن تلد الأرض أولا يا بركات ..

قال :

- ساسأفر غداً إلى السويس .. كنت أريد أن أعمل معكم حتّى نزرعها ..

قلت :

- لاعليك .. (ثم اكتشفت أننا حرمنا من جهده ومن جهد هدى أيضاً .. فلن تذهب إلى الحقل بعد اليوم ..) قلت :

- لم تعد الأرض فى حاجة إلى جهد كبير ! ..

قال :

- إنها فى حاجة إلى الخدمة حتّى يولف الردم الجديد مع طينتها .. وتتعود عليه ..

قلت :

- أرى أن الردم ليس كافياً .. مازالت واطئة عن أرض الجيران ..

قال بركات :

- المهم خدمتها .. والعناية بها .. لاتجعل الماء ينشع فيها من أرض الجيران .. لك يخنقها ..

قلت :

- سأنام بجوارها ..

قال :

- عم عنانى كان ينام على جسورها قبل أن يبيع ترابها ..

قلت :

- لقد ضعف .. لم يعد يحتمل ..

قال بركات :

- البركة فيك أنت ..

صمت .. تذكرت ماقالته هوانم : «لابد أن تمنح خصوبتك للأرض» وحكايتها عن مكن المعمل .. وكيف تغسله وتنظفه بيديها هي ..

سمعت صوتها وهى تغنى فى الحوش والطبلة تضبط الإيقاع .. لابد أن بنتاً من البنات ترقص .. سيطرت على رغبة فى مشاهدة الرقص .. أن أرقص أنا .. ماذا فى ذلك .. «خالد أفندى» .. هذا هو الحاجز .. لن أتخلص منه .. إلا اذا حدثت معجزة .. اهتزت قدمى على الإيقاع .. وغناء هوانم يصافح أذنى .. صفقت .. نظر إلىّ أبى .. ابتسم .. خجلت .. نهضت .. خرجت من المندرة .. وقفت على باب الشارع أدخن سيجارتى .. رأيت صبياً يجرى وهو يزعق مصفقاً بيديه :

- «عزلوا العمدة .. ياولاد .. المفتى عزل العمدة ! ..»

* * *

بعد يومين .. رأيت رجالا فى ثياب كاكية .. يقيمون تبة لضرب النار فى أرض البركة .. عرفت أن الجيش الشعبى سيكون بالقرية كتائب للدفاع المحلى .. وقفت أرقبهم وأنا فى طريقى إلى الأرض .. شعرت بالزهو وأنا أرى تبة ضرب النار تقام مرتفعة فى الناحية القريبة من مقابر القرية .. كانوا حريصين ألا يصيب الرصاص أحد المارة من القرية إلى الحقول .. قلت : أرجو ألا يزعج الرصاص أمواتنا .. وذهبت إلى الأرض .. كان أبى يحرثها .. وعم طه أبوجلهوم يربط ماشيته فى محراثه .. ويستعد لمساعدة أبى .. وجدت الدنيا من حولى مضيئة .. وسمعت غناء الطيور .. لأول مرة أنصت إليها وهى تغرد فوق الشجر الممتد بطول شط أم شوشة .. امتلأت بالثقة .. نزلت بفأسى إلى الأرض .. وقلت لأبى :

- إليك الفأس .. ودع لى المحراث ..

قال لى :

- بورك فيك .. لم تعد يدى تقوى على التحكم فى المحراث ..

قلت :

- هل يكفى محصول الفول لسداد فلوس الحاج المرابى ..

قال أبى :

- ربنا موجود .. وعالم يا ولدى ..

فرقعت بالفرقلة .. ودست بقدمى اليسرى على مؤخرة المحراث .. بكل قوتى .. غاص سلاح المحراث فى الأرض .. قلب بطنها .. رأيت الطين الأسود يختلط بالتراب الجديد .. قلت :

- ستولف الأرض مع ردمها يا بركات .

تذكرت أنه سافر منذ يومين .. بعد أن ودعنا .. ذهبت معه إلى محطة الأتوبيس .. أبى أشار علىّ بذلك .. كان متجهماً وهو يودع القرية .. لكنه قبل أن يركب الأتوبيس ابتسم وشد على يدى ..

قلت له :

- أنت ذاهب .. لواجب مقدس .

قال بارتباك شديد :

- إذا .. إذا لم أعد .. فـ ..

وخنقته الدموع .. ابتسمت لأخفف من توتره .. قلت :

- ماذا ؟ .. لقد حاربت من قبل فى اليمن وعدت سالماً ..

قال :

- هدى ..

وصمت . ابتسمت له .. وقلت :

- كلنا سننتظرك .. المهم أن تكون هناك معركة فاصلة .. لنريهم - ولو لمرة واحدة - أننا قادرون ..

وجاء الأتوبيس .. وركب ..

اهتز المحراث .. فلسعت البقرة بالفرقلة فجذبت المحراث بعنف مع الجاموسة .. فقذف سلاح المحراث حجراً كبيراً فأوقفت المحراث وحملت الحجر إلى الجسر .. وعدت لأكمل عملية الحرث . وكان عم طه أبو جلهوم يسوق محراثه فى الجانب الآخر من الأرض .. وأبى يعزق بالفأس فى المساحات المجاورة للجسور التى لايتمكن المحراث منها ..

مرت ساعات طويلة .. ونحن نعمل فى صمت .. لايخلو أحيانا من بعض الكلمات المتبادلة .. عن أخبار البلد .. وعن عزل العمدة وعن قائمة التهم التى جمعها المفتى بدقة وبراعة ..

قال عم طه :

- قال لى المفتى أمس .. إن هناك تحقيقاً طويلا معه فى المديرية ..

قال عم طه :

- الحمد لله .. وبنا كشف المستور ..

قلت :

- لولا خوفنا لانكشف أمره منذ وقت بعيد ..

قال أبى :

- الله يمهل ولايهمل .. وله حكمة فى ذلك ..

قال عم طه :

-كدنا نضيع ..

قال أبى : وعسى أن تكرهوا شيئاً . ربنا يجعل لكل شىء سبباً . وبعد وقت أعد الجوزة ، بعد أن أشعل فرع شجرة فى ركن الأرض .. وجاء بها إلى عم طه وهو يجذب أنفاساً متقطعة منها اشعلت المعسل فى الحجر..

أعطى الجوزة لعم طه .. وقال :

- خذ عندك .. مثلا .. الهزيمة .. كانت مصيبة حطت فوق دماغنا .. لكن .. سمعت عن المحاكمات ..

قال عم طه :

-كشفت المستخبى ..

قلت فى نفسى :

- أكان ضرورياً أن نهزم لكى ينكشف المستخبى .. لكننى أسرعت أعترف :

- وماذا فعلت أنا ؟ ..

تذكرت كلام المفتى الذى قال لى مرة إن شعوباً كثيرة هزمت .. لكن أحداً من أبنائها لم يمرغ كرامتها فى التراب ..

قلت له يومها : إنه نقد ذاتى .

قال مؤنباً : هناك فرق بين التحدث عن البلد وكأنها ليست بلدنا وبين نقدها .. باعتبارها وطننا . فرق كبير بين هذا وهذا .. لكن أمخاخكم خربة ؟ !

وعاد المفتى يكرر ماسبق أن قاله .. «كان مصطفى كامل يقول إن مصر جنة الله على الأرض .. تكرم أبناءها ما أكرموها .. ولم يتسامحوا فى حقها .. »

ودست على مؤخرة المحراث بقدمى .. بكل ثقلى .. لابد أن نقلب أحشاء

الأرض .. ليحدث الامتزاج الكامل بين طينها والتراب الجديد ..

قلت :

- متى تسدد الدين .. المرابى يطمع فى الفدان ..

وتذكرت ماقاله لى المفتى أمس فى مقهى أبو المجد .. قال إن الحاج المرابى كشف له عن أمنيته أن نعجز عن السداد فى الموعد ليضع يده على الفدان ..

فرقعت بالفرقلة .. نشطت البهائم فى جر المحراث كان أبى يسير مع عم طه .. وهو يحرث قبالتى فى الجانب الآخر .. قلت :

- ستظل أرض العنانى .. للعنانى .. هذا هو مايجب أن يحدث ..

ها .. عا .. وفرقعت بالفرقلة ..

واكتشفت بعد وقت طويل أن أبى يكرر نداءه لى بأن أترك البهائم تستريح قليلا ريثما أتغدى .. كان يأكل هو وعم طه وجاءت أمى التى حملت لنا الغداء ، تسير معى وهى تقول :

- تغدى أولا ياخالد ..

قلت ضاحكاً :

- ماذا أعددت لنا . فطيرة ذرة وشبار .. كما قلت لك ..

قالت : وبصل أخضر وأرز مفلفل .. هيا لنأكل ..

* * *

تركنا الأرض للشمس وقتا طويلا .. ثم أعطيناها مزيداً من السماد والردم .. وبعد شهر آخر كنا نزرع بذور الفول فى الأرض لأن جذوره تفيد الأرض .. بعد أن زحفها أبى وعم طه بالزحافات .. ثم خططناها معاً بالمحاريث والفؤوس .. وجعلناها مربعات .. ودعمنا جسورها بمزيد من الطين والقش .. وبعض

الطوب .. كما أشار عم طه وهو يقول :

– لابد أن تكون الجسور متينة .. حتى لا تغرقنا مياه الغدر مرة أخرى ..

قلت له يومها :

– سنظل نعلى الجسور .. حتى تعلو الأرض من جديد ..

وقال أبى :

– مد الله فى عمرك ياولدى .

كانت أمى تحمل إلينا بذور الفول .. من عند الزكائب التى صرفها أبى ليلة أمس من مخازن الجمعية الزراعية ..

وقال عم طه :

– الأرض تحتاج إلى الكيماوى ..

قال أبى :

– سأشترى لها من الجمعية .. المسألة فقط .. أن النقود شحت معى ..

تذكرت أننى لم أكتب للجريدة منذ زمن طويل .. وقلت سأكتب الليلة مقالة وأطلب من رئيس التحرير أن يرسل الأجر دون انتظار إلى ما بعد نشره .. سأشرح له الظروف .. لعله يقدرها .. وانشغلت فى دفن بذور الفول فى الحفر التى أصنعها فى تربة الأرض بوتد من فرع الشجر ..

كانت البنات يسبقننى بمهارتهن فى الزراعة .. لكننى بذلت جهداً حتى لا أتخلف عنهن ..

غنت إحداهن .. وانشغلت بمشاركتهن الغناء ..

« يا ديل الحمام يانا يا امّه » .

« ياديل الحمام .. دبلان .. دبلان ».

« ياديل الحمام جانى الأسمر »

« ياديل الحمام .. وأنا بزرع »

« ياديل الحمام .. دبلان .. دبلان »

رأيت وجه أبى يشرق بالسعادة والتفاؤل .. ونحن نغرس بذور الفول فى الأرض .

وقال عم طه :

- عندما يعود خالد أفندى لعمله فى الجريدة .. سيجد لديه زاداً وزواداً من الحكايات ليكتبها ..

نبهتنى كلمات عم طه إلى حقيقة لم أناقشها من قبل مع نفسى بحسم .. وهى : هل سأعود حقًّا إلى عملى مرة أخرى . . أم أننى سأظل أزرع الأرض مع أبى . .

قال أبى .. وكأنه نسى السبب الذى جئت من أجله أصلا لأعمل معه فى إصلاح الأرض .

- خالد .. كان فى أجازة طويلة من عمله .. سيعود حتماً إلى الجريدة ..

ثم ضحك وقال لعمّ طه :

- أنت تعرف أنه يغوى الكتابة منذ كان تلميذاً بالمدرسة .. ثم انه .. إنه صحفى كبير هناك فى مصر .

ثم مضى يحكى لعم طه عن الكتب التى كنت أقرأها والتى كومها فى مخزن التبن بعد سفرى للقاهرة وعن الحكايات التى أكتبها وعن النقود التى كنت أرسلها له من القاهرة .. انزعجت للمبالغات التى ضخم بها أبى الحقيقة .. نظرت إليه .. وجدته يحكى بانفعال حقيقى .. ويذكر أرقاماً خيالية عن مرتبى وعن حياتى فى القاهرة .. فكرت أن أعارضه .. لكننى ترددت ، ثم تراجعت عن الفكرة .. عندما أدركت

أنه وإن كان يبالغ .. فهو يعبر عن أمنيات فى صدره .. أمنيات خلاصتها أننى لابد أن أكون كما يريد .. وأن أحقق مايتصوره بخياله الخصب مهما كان الطريق شاقًّا .. والعودة لعملى صعبة ..

أحنيت رأسى .. ومضيت أغرز بذور الفول فى الأرض .. وغناء البنات من حولى يشدنى .. يدفعنى دفعاً إلى مشاركتهن بحماسة ..

«يانخلة فيها النوا .. آه ياوله»

«حبيت ورمانى الهوا .. آه ياوله»

«خلانى قاعده بازرع .. آه ياوله»

«قرب جنبى وقاللى .. آه ياوله»

«والله رمانى الهوا . آه ياوله»

«آه ياوله .. آه ياوله»

* * *

وفى اليوم التالى .. وصلتنا أول رسالة من بركات .. قال إنه سعيد بعودته إلى رفاقه فى السويس وروى ماحدث يوم معركة المدافع وتدمير صواريخ العدو .. وقال إن مدفعه كان يغنى وهو يرسل بقذائفه عبر قناة السويس .. وأنه كان يرقص كلما أحس بأن قذيفته جاءت فى المليان .. وأقسم أن مدفعه لم يخنه مرة واحدة .. وقال : «قل لهدى إننى بعد الحرب سأحضر مدفعى معى لأضعه أمام الدار لكى يلعب به الأطفال كل صباح ..

ثم ختم رسالته بقوله : «نسيت أن أقول لك ياخالد أفندى .. إننى عندما أعود سأدفع مهر هدى .. وأرجو أن توافق على أن يكون المهر هو سداد ديونكم للحاج المرابى .. هل توافق .. » اهتز قلبى ، تأثراً من صدق بركات وإخلاصه ..

وفكرت أن أحتفل بسعادتى ، هذه الليلة مع هوانم ، لكننى نمت مجهدا ، وكان على أن أصحو فى الفجر .. وكنت قلقا لتأخر ظهور الزرع ..

طوال الأيام التالية .. كنت أقبع بجوار الأرض .. وكان أبى يمر على جسورها حتى يتعب .. كانت عيناى فوق ترابها .. قنواتها كنت أنتظر لحظة الميلاد .. أحلم باللحظة التى أرى فيها البراعم الخضراء . وفى اليوم العاشر ، كان أبى يتحدث مع عم طه أبو جلهوم وهما يدخنان الجوزة تحت الصفصافة عن بركات ورسائله إلينا من الجبهة .. عندما صرخت بدرية تعلن أن الجاموسة تلد .. أسرع والدها وأبى إلى عريشة البهائم .. جريت خلفهما .. جذبا رأس العجلة من أمها .. أسرعت بدرية إلى جسر الأرض وانتزعت بصلتين كسرتهما فوق ركبتها وراحت تمسح بهما أنف وفم العجلة التى تمطت .. وأمها تلحسها بلسانها بلهفة شديدة .. شدنى وجه بدرية .. كانت فرحة وموردة .. خفق قلبى .. انطلقت أجرى فى المسقى الذى يمتد فى أرضنا بطولها .. فى منتصف المسقى توقفت .. كان الإحساس بروعة الميلاد يهزنى .. انحنيت حتى اقترب وجهى من تراب الأرض .. كانت البراعم تشيل التراب .. ترفعه ببطء .. ببطء .. فى لحظة الميلاد العظيمة .. خيل إلى أن الأرض تتمطى .. وباطنها ينفرج .. فينفلت الزرع الأخضر بأوراقه الصغيرة المرتعشة فى مواجهة نسمات الصيف الدافئة ..

اقترب وجهى من التراب .. لفحنى صهد الأرض .. أنفاسها ملأت أنفى .. التصقت جبهتى بالتراب وقبلت نبتة الفول الصغيرة .. ضممتها بين شفتى .. كان لها مذاق خصب .. تذكرت شفتى هوانم .. دفئها .. نبضاتها .. خصوبة النيل فى جسدها .. كأرض العنانى التى تلد الآن أملنا الذى طال انتظاره .. مرغت وجهى فى التراب .. فاضت فرحتى .. غمرت قلبى وروحى وعقلى وبللت عينى بدموع

اختلطت بتراب الأرض الدافئة .. عندما نهضت .. اكتشفت أننى كنت راقداً بطولى فوق الأرض .. درت حول نفسى على إيقاع وشوشات تصدر من باطن الأرض .. موسيقى هامسة اهتز لها قلبى .. وفاضت رائحة الخصوبة فى كل الدنيا حولى .. وسرب من الحمام يحلق فوق رأسى .. وظله ينطلق مطوفاً فوق الزرع .. أخذت أفرقع بأصابعى طربا ونشوة .. على إيقاع دفعات الرصاص التى كانت تدوى بعيداً فى أرض البركة التى أصبح اسمها « أرض المعسكر » .

نظرت إلى أبى .. وعم طه .. وهتفت :

- أرض العنانى ولدت .. ولدت ..

ضحك عم طه .. وارتعشت فرحة العمر على شفتى أبى ثم فرشت وجهه الأسمر وأضاءته .. فبدا أكثر شبابا وتألقاً .. وشمس الصيف الدافئة تعكس ظله طويلا وعريضاً فوق براعم الزرع الخضراء .. شعرت بأن عنقى قد طال فوق هامتى .. نظرت إلى أراضى الجيران .. كانت أرضنا لاتزال واطئة إلى حد ما .. لكن لابأس .. مزيد من العرق والسماد والتراب فى الزرعات القادمة .. وينصلح الأمر .. قلت ذلك لنفسى وأنا أنحنى وأنبش بأصابعى فى تراب الأرض .. أخذت أساعد برعماً آخر على الانفلات إلى الحياة .. وصوت تفتح البذور يملأ أذنى بأعذب لحن سمعته فى حياتى ..

« تمت »

كتبت فى ١٢ / ٢ / ١٩٦٩

ونشرت فى ١٩٧٩

رقم الإيداع	١٩٧٩/٤٨٧٣
الترقيم الدولى ٤ – ٨٤٠ – ٢٤٧ – ٩٧٧	ISBN

١/٧٩/١٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)